نادية الابرو

رواية

محاكمة نادية الابرو

الوراقة
دار للطباعة والنشر

محاكمة

نادية الابرو

الكتاب: محاكمة نادية الابرو

المؤلف : نادية الابرو

الصنف: رواية

الطبعة: الاولى

سنة الطبع : 2023

الترقيم الدولي : ISBN: 978-9922-8512-4-2

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (587) لسنة 2023

تصميم الغلاف و الاخراج الداخلي: علي كاظم الشويلي

الناشر: دار الورشة الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع

الورشة دار للطباعة والنشر

UMBRELA امبريلا للطباعة والنشر والتوزيع

العنوان: بغداد – شارع المتنبي – مجمع الميالي – الطابق الاول

الهاتف: 009647714343692 \ 07729247088

alwarsha2018@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب او أي جزء منه او تخزينه في نطاق استعادة معلومات او نقله بأي شكل من الاشكال دون اذن خطي مسبق من الناشر

ان الاراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار الورشة الثقافية

نادية الابرو

محاكمة
نادية الابرو

رواية

٥٦٢، ٩٠، ٨١٣
ج ٢٤٩ الابرو ، نادية
محاكمة نادية الابرو / نادية الابرو .ـــ
ط . - بغداد : دار الورشة ، ٢٠٢٢ .
١٩٥ ص : ، ٢١سم
ا. القصص العربية - العراق . أ. العنوان

م . و .
٢٠٢٣ / ٥٨٧

المكتبة الوطنية / الفهرسة اثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٥٨٧) لسنة ٢٠٢٣

لكن... كيف يمكنك العيش دون أن تكون لديك قصة ترويها ؟!!

ديستوفسكي

أتحسس ملمس العشب الأخضر الندي بقدميّ الحافيتين، تجتاحني نشوة طفولية وبريق سعادة خاطف، أسير بخطوات متثاقلة في الحديقة المخنوقة بجدران إسمنتية مرتفعة بحثاً عن متنفس في سماء زرقاء تمتد على أفقها بضعة عصافير وحمام الفاخت الحزين الراحل نحو الظل، أتلمس بأطراف أصابعي المتعبة الشاحبة ورق الشجيرات، أدعك بعضها فلا أشم عطر مائها المخضر رغم محاولتي الحثيثة في استنشاقه واختبار أنف ما كنت أظنه سيفقد وظيفته التي طالما تميز بها عن أقرانه من الحواس الأخرى بشهادة من حولي.

أجلس على الأرجوحة، أطيح برأسي المثقل بالصداع إلى الوراء متكئاً على حافتها الحديدية أملاً في الانعتاق من براثن

أفكار مضللة وأخرى خيالية غبية ما تنفك تغلف روحي بكآبة وإحباط موجع تزداد قتامته مع ليل طويل مؤرق تحاصرني فيه الأطياف والرؤى، تستحضرها حمى تستنزف جسدي وطاقتي، ولا أنام حتى يطل ضوء الصباح من نافذة مشرعة عارية الأضلاع لا تحب التواري خلف ستارة بنية ناعمة فتبقى ملمومة على الجانب معظم الوقت في تقاعد مبكر قسري عن وظيفتها... ليلتها ما استطعت النوم، غالبني الألم بانتظار أن تطرد الشمس ليلاً لازم النافذة كحارس مخلص، يحتلني الألم في نوبات متتالية تتقارب وتتضخم شدتها على ظهري وأسفل بطني وأنا أتلوى متقلبة على السرير لا يواسيني سوى شخير زوجي الذي يتغير إيقاعه الموسيقي وطبقته وفق لحن ارتجالي، الليل عنيد قاس كعاشق خاب ظنه في محبوبته، مثلما خابت قدرتي على الاحتمال وبات لزاماً عليّ الإفصاح عن وجعي الشديد إلى صرخات قاطعت سمفونية الشخير.

الألم سكاكين تقطع الظهر وتمخر عميقاً في البطن المتقلصة على جنينها في كفاحه للخروج منزلقاً مع مائه الذي اتسع على كرسي السيارة الوحيدة في الشارع التي أقلنا سائقها النعس إلى

مستشفى بن غزوان دون أن يأخذ أجرته، تاركاً زوجي يتخبط في الممر الطويل المقابل لصالة الولادة مع بضعة رجال متلثمين بكوفياتهم من البرد أو من وقع الخبر الذي ستزفه الممرضة على أحدهم لاسيما حين تهمس بصوت منخفض من غير رجاء في الإكرامية: مبروك أجتك بنيه...

الصباحات طويلة مملة متشابهة حد الفزع من تكرار سؤال ما يبرح يلح على عقلي كل يوم: لماذا أتعلق بالحياة ما دامت أيامها متشابهة؟! ما الجدوى؟ ما الجدوى مما نصنعه أو لا نصنعه؟ ما الفائدة ما دمنا مقيدين بشيء اسمه الوجود؟ والأدهى أنه خاو خرب لا يبعث في أرواحنا إلا استفهامات كبيرة مقيتة لا جواب لها، ما الجدوى من عمر هُدر ورجاءات خائبة؟!

أقلب هاتفي النقال وصور لمدينة أربيل ومصايفها تطاردني من تطبيق لآخر، أحاول كسر الروتين والفكاك من طوقه اللامرئي ولا أفلح في ذلك، مدركة ضعفي وخذلاني في التأقلم واتباع حمية تقيني من تخمة التفكير وتشظيه في رأسي، لكني أداوم على إمساك نقالي كعادة لا شفاء منها في تبديد الوقت ومداهنة الكسل.

أواضب على أخذ الدواء بانتظام وقياس درجة حرارتي المتفاوتة ونبضات قلبي في رجاء عميق بالخلاص من حمى فايروس الكورونا وسجنه القسري ذي الجدران البيضاء الأربعة الشاخصة والسقف المراوغ في صمته، لم يسبق وأن اختبرت مذاق السجن... لولا صداقتنا القديمة البعيدة الأمد لما وثقت بكلامك ونفيك التام في احتمال أن تكوني ذات مرة نزيلة ذاك السجن، وأن وفية رفيقة تلك الزنزانة ونديمة ليلك... وإحساس السجين باتساع الملل والفراغ في روحه، بصدأ الوقت وانخراط ساعاته في الدوران حول نفسها حد الإرهاق بحثاً عن خط النهاية في سباق أزلي مفزع.

في العتمة تنال الحمى من جسدي وتشتد ضراوتها ناهيك عن روحي وضيق أفقها، فأجرجر نفسي نحو زر المصباح طمعاً في ضوئه، لا أدري إن كان المرض يحيلنا إلى صغار من جديد، باعثاً فينا الخوف ثانية من أشباح لازمت طفولتنا وتقوقعت في دهاليز عقولنا لتطل ملوحة حين تسنح لها الفرصة؟!... لا أدري... لست منوطة بالإجابة عن كل هذه الأسئلة وما تضمر خلفها من شكوك وإرهاصات ذهنية لا مناص منها ولا جواب لها

في وضعي المزري هذا سوى حبة منوم وابتسامة صغيرة تباعد بين شفتي المشققتين الباهتتين على ما قاله لي صديق ذات مرة حول خوفه الشديد من الظلمة والنوم وحيداً مع خيالات رمادية تدغدغ أصابع قدميه أو توشوش في أذنه مداعبة خصلات شعره متناسياً أنه بات أصلع، ولولا ذلك ما فوت على نفسه المنحة الدراسية إلى إحدى الدول الأوربية، غفت مع شبح تلك الابتسامة المراودة، وبالطبع على ضوء المصباح.

تبقى الحديقة فرصتي الوحيدة، وملاذي في تغيير الأجواء، واستنشاق هواء طلق خال من الفايروس يغمرني رغم سخونته منساباً على وجهي الشاحب وشعري بخصله المعقودة التي لن يتجرأ إلا مشط عتي الأسنان على فكها، لكن يديّ لا تقويان على حمله بعد أن استوطنت الحمى أطرافي وسائر جسدي بالضعف والوهن، حتى لساني السليط ما عاد يقوى على الحديث والمهاترات مع ابني الذي بات في إجازة من تعليمات وإرشادات الأمومة المضنية، تلتمع عيناه حين يلقي التحية عن مسافة ولا يطاله مدى بصري إلى أبعد من حدود باب الغرفة الموارب أو المفتوح أحياناً على ممر صامت يشكو العزلة هو الآخر.

مضى الوقت بأيامه الثقال معرياً ما تبقى من إيماني بضرورة المواصلة وبذل الجهد، معلنة اعتزالي عن عالم السرد وتعقيداته موقنة أن لا جدوى من اجترار الألم والمعاناة وإعادة صياغتها وتشكيلها بكلمات قد تبقى عاجزة عن الولوج في لب الحقيقة واستدراك عمقها أو ربما عقمها.

يضحك أبي من قراري الذي يطرق سمعه عبر النقال ضعيفاً هشاً لا يرقى في ثباته إلى التصديق، لا أعرف لماذا أصب جام غضبي أو بالأحرى ضعفي وانهزامي على الكتابة! وأنا الأكثر دراية أنها الفم الوحيد لاستفراغ روحي وتطهيرها من مكابدات الحياة وخذلانها المتكرر البائس وإن تغيرت أشكاله، ظروفه أو ملابساته، الإدمان المستتبت تحت جلودنا والساري مسرى الدم نحو قلوبنا المفجوعة بعبثية الحياة ونهايتها الحتمية في سباق غبي أحمق لا أفهم لماذا وجدنا أنفسنا فيه؟ ولطالما جرتني هذه التساؤلات وغيرها إلى حافة الإلحاد والجنون لولا لطف الله بي.

لم أكن أظن أن لهذا المرض الأثر النفسي الشديد عليّ، ففي غرفتي المعزولة لا أجد سواي قبالتي في كل مكان وزاوية، قد لا يدرك بعضهم حجم مأساة أن تكون مع نفسك كل الوقت تصغي

لأنينها، توبيخها وصدى عتابها المتصاعد المأزوم، ليطول السهاد على وسادة لم تناسبني مرة رغم استبدالها مرات عدة، يبدو أن المشكلة في عنقي ورأسي المملوء بذكريات الأمس العابس، ملل الحاضر، وقلق المستقبل.

بات الرد على الهاتف من أثقل المهام على قلبي، لم أعد راغبة في معرفة ما يجري خارجاً ولا سماع الأدعية والرجاء بشفاء قريب يلوكها أهلي والأصدقاء... لكني انتظرت اتصالهما، مفضلة الموت مقابل عودة الأمور كسابق عهدها... بقصد الترويح عني ورفع معنوياتي المحبطة.

***　　　***　　　***

يزعم الجميع بأن وجهي بدأ يستعيد نضارته رغم الشحوب الخفيف البادي عليه، تفكر شقيقتاي بالسفر إلى أربيل للعلاج والاستجمام بعد تلقينا عدداً من العروض المغرية على الفيسبوك، تتناوبان في طرح الفكرة وترغيبي عبر إرسال صور لمطارات وطائرات بشعاراتها وألوانها المختلفة، وحقائب سفر بماركاتها المتنوعة فيسيل لعابي وأتحمس.

هل حقاً أنا قادرة على توديع غرفتي والخروج، فتق خيوط سوداوية حكتها بإتقان حولي بمساعدة كورونا؟! لكن شقيقتي تصران عليّ واثقتين أن السفر وحده من سيمطر تلك الغيوم

الرمادية المتكاثفة في سماء روحي هههههههه، يا لهما من محتالتين؟ وكم أنا مكشوفة أمامهما!؟

لا أزال مترددة إزاء فكرة السفر وحبن أخلدت إلى النوم حلمت بأحدهم ينادي عليّ بصوت عال تردد صداه إلى حد إيقاظي فزعة: في أربيل سيتغير مجرى حياتك! سيتغير في أربيل مجرى حياتك! فكرت بضعة دقائق في هذه الجملة فلم أتبين تفسيراً لها وعاودت النوم على أمل أن ألتقيهما هناك صدفة في أربيل، من يدري ربما هذه إشارة! أو فأل سيء؟!

حزمت حقيبتي بالطبع بمساعدتهما... لم ألحظ أي حقيبة متأهبة أو تصرف غريب بدر منهما، يا إلهي كم كانا محتاطين، وكم كنت ساذجة؟! كيف استطاعا فعل ذلك بنا؟!... كنت مترددة في إقبالي على فكرة السفر أو ربما أتظاهر أمام نفسي بذلك! لكن الحقيبة أخذت مكانها أمام الباب الخارجي بانتظار سماع صوت منبه السيارة التي أقلتنا إلى المطار عبر طريق خارجي مقفر موحش لا يحضرني اسمه الآن، سأسأل أختي لاحقاً بخصوصه.

ألقيت نظرة وداع سريعة حزينة على البيت... هل ودعانا ونحن نائمون؟ أسارا على أطراف أصابعهما قي العتمة أم لحقا

أمانيهما على عجل لا يسمح بالنظر إلى الوراء؟!... برفقة حقيبتي السمائية اللون لوحت لزوجي وولدي المنشغل بعوالمه الافتراضية واعدة إياه بطائرة كبيرة هدية له، تعمل بالريموت كنترول، تزاحم بقية ألعابه المكسورة والمبعثرة على أرضية غرفته وسريره.

بعد الخضوع للتفتيش نزولاً وصعوداً إلى السيارة اقتربنا من أعتاب المطار العائم بين الغبار، وهناك في قاعة المغادرين التقينا بباقي أعضاء الفريق السياحي الذي سنسافر بصحبتهم. تمللت كثيراً في الجلوس على مقعدي، أنقر الأرضية بقدميّ بإيقاع متناوب متوتر، لوهلة بان عليّ الندم، فالنحول لا يزال يجتاحني في موجات باردة تبدد غبطتي المؤقتة، فرمقتني شقيقتي بنظرة ملتمسة صبري وعدم الإفلات بذلك الجانب الرائق المنشرح في مزاجي لحين موعد المغادرة... أترددا في صعود سلالم الطائرة المعدنية القاسية أم كانا أشد قسوة وإصراراً؟ وهل ألقيا نظرة وداع أخيرة على مدينة رمادية يكسوها الغبار والجفاف رغم قلبها النابض الأخضر؟!

نسيت أو تناست شركة السفريات إطلاعنا بحجزها على الطائرة المغادرة نحو السليمانية بدل أربيل لنقص في الحجوزات كنوع من

مفاجأت السفر المزعجة مثيرة ريبتي واستيقاظ ذلك الحلم في رأسي، فحطت بنا الطائرة في مطار السليمانية حيث عوملنا بجفوة كغرباء من بلد آخر، وبعد سلسلة من الانتظار، التفتيش والتدقيق في بصمات عيوننا المفتوحة بخشية أمام الموظف المسؤول، تم منحنا بطاقة دخول تنفذ صلاحيتها بِعد نصف شهر أو شهر لا أتذكر على وجه الدقة، حمداً لله لم نكن من المشتبه بهم رغم وجوه الموظفين الواجمة المتجهمة.

حملنا حقائبنا خارج حدود المطار الموحش إلى حافلة (كوستر) استأجرتها الشركة لتقلنا إلى أربيل... لا أفهم كيف سيتغير مجرى حياتي في أربيل!... وفي الطريق توقفنا عند أحد مطاعم السليمانية المشهورة بالأكلات الشعبية، حيث اندلقت شهية الجميع على منظر ورائحة الشواء اللذيذة، فتحوطنا مائدة عامرة بما لذ وطاب كمكافأة نسينا معها ضيق الانتظار في المطارات ووجوه جامدة يصعب عليها الابتسام.

استقللنا الحافلة من جديد لكن هذه المرة ببطون شبعة بل متخمة مع مزاج رائق حسنته (استكان) شاي كبيرة بطعم الهال كما

يفضله العراقيون، فسارت عبر طريق ناضل في شق إسفلته بين تلال عالية غيبت الشمس خلفها حتى خلتها أشباحاً تطاردنا بأفواهها الكبيرة وقسماتها المتشابكة، يفرغ القمر نوره على بعضها في لوحة سريالية غريبة تسهم في تشكيلها نسمات هواء عليلة تداعب وجوهنا وتحملنا عن همومنا بعض الوقت... كان مساء ربيعياً دافئ النسمات شهد خروجنا من بوابة المستشفى، أنا على كرسي مدولب تدفعه إحدى العاملات ووالدتي تحمل حفيدتها المكتنزة بين الأقمطة البيضاء وزوجي يتقدمنا بحقيبة قماشية وردية اللون على كتفه... ربما أنا الأكثر بين ركاب الحافلة إصغاء للطريق، همس نجومه المشاغبة المتلصصة، هدير السيارات المارة القليلة، أعمدة المصابيح المتوهجة الممتدة أمامنا في تسابق مع سائق مشغول بدندنة أغاني كردية مبتهجة سريعة الإيقاع بمشاركة بعضٍ من الفريق بالتصفيق ليصدحوا بعد حين بأغاني عراقية تفوح منها رائحة حزن معتق بطعم ليالي الجنوب، فيهز السائق رأسه منتشياً طرباً، أشاركهم التصفيق قليلاً بيدين ضعيفتين لكن بمرح أكبر، تاركة ظهري للنافذة والطريق الذي يوشك الدخول مستئذناً إلى حدود أربيل، بدونا كعائلة تنظر في عيون بعض مبتسمة بانشراح... تأملتها بعينين مجهدتين لكن

سعيدتين وهي تبحث برأسها الصغير، المعصب بقماشة بيضاء ناعمة، وفمها الكرزي ملتقمة طرف لحافها القطني الخفيف... تلك العلاقات والروابط التي تنشأ بين المسافرين تبدو قوية لكنها متعجلة ذات نهاية معروفة مسبقاً رغم الوعود الدافئة بدوامها واستمرار التواصل بعد العودة، لكن مزاج الحياة اليومية وواقعها المثقل بالمشاغل يحول دون ذلك رغم طيب النوايا وصدقها.

ما يقارب التاسعة مساءً وبعد اجتيازنا اللوحة المرورية المشيرة إلى أربيل المقلوبة رأساً على عقب، وقفت الحافلة أمام سور تتخلله قضبان حديدية حديثة الطراز لفناء رخامي ممرد وحديقة واسعة غناء مشذبة تمتد أمام فندق يتباهى بنجومه الخمس المشتعلة على طابقه السابع الأخير، بعد مرورنا بالمدينة المكتظة وشوارعها الملتفة على بعضها في دوائر يتناقص قطرها تدريجياً مع اسم كل شارع انتهاءً بالقلعة العتيقة المادة ببصرها كحارس لا تغفل عيناه على مدينة تتسع أفقياً وعمودياً، تتغير ملامحها كل فترة، تلبس رداء الحداثة المزجج البارد، تتزين بأضواء مصابيح النيون ولوحات الإعلانات المختلفة المبهرجة التصاميم، فشد انتباهي صورة لامرأة في عقدها السادس بفستان ذهبي اللون مسترسل

على جسد يناوئ بين الحمية والبدانة، لم يتسنَ لي قراءة اسم المطربة المتوحدة مع المسرح حتى بعد رؤية الإعلان ذاته في مكانين متفرقين من المدينة.

ارتقينا المصعد إلى غرفتنا في الطابق الرابع، المطلة بشرفتها الأنيقة على بركة سباحة أنيقة يلمع ماؤها تحت أضواء المصابيح المنتشرة في الحديقة كإحدى ليالي ألف ليلة وليلة، مثيرة الرغبة في الغطس أو على أقل تقدير تمرير اليد فوق صفحة وجهها المنعشة... هيا لا تخش الماء، مد يدك نحوها، مررها، ما من شيء مخيف، هيا يا بني، تعاااال اقترب لا ضير أن تبتل قليلاً... ولولا الإرهاق والتعب لنزلت إليها مصافحة لكني أرجأت ذلك حتى صباح الغد.

استلقت كل منا على سريرها، وكالعادة وجدت صعوبة في النوم، فراودتُ عقلي المشحون بالكثير من الأفكار والمفارقات، حتى أني بدأت التفكير بكتابة رواية، رغم تبلد خيالي وجفاف مداده، وقراري المتسرع تحت وطأة المرض بتركها نهائياً وعدم المحاولة، يحمل بعض شخوصها مواصفات وسحنة بعض أعضاء الفريق الذين وضعتهم نصب المراقبة منذ ساعات، فلم يفتني كيف

ترمق إحداهن بنظرات مأخوذة زوجها المتكلف في ملابسه الأنيقة التي لا تناسب أجواء السفر، بينما تلف جسدها المترهل التضاريس الممتلئ بجلباب أسود قديم الطراز وحقيبة تشقق جلد يدها واهترأ مكتفية بحذاء تغضن وجهه من كثرة الاستعمال، نكزت شقيقتي كي تلاحظ الفرق بين الزوجين وسلوكها المتذلل الغريب لأجل إرضائه ونيل حظوته، حينها أشفقت عليها، ساخطة على موقفها الضعيف مع زوج يسبقها في مواصفات ظاهرية عديدة أولها الشكل الوسيم المتناسق**!؟** فلم أمنع نفسي في تذكير شقيقتيّ بهما كنوع من مراوغة الأرق وإشراكهما فيه، لكنهما غطتا في نوم عميق صاحبه شخير كأني أتوسط كتيبة جنود ولا أذكر في أية ساعة صاحبتهما العزف**!**

في الصباح وبعد وجبة الإفطار... لا يحمل في صحنه من بوفيه الإفطار سوى قطعتي خيار متعثراً بأذيالي مرتبكاً من الناس المتحلقة حول المائدة الطويلة الممدودة... جلسنا في بهو الفندق الذي تزينه ثريا مدلاة من أعلى السقف كدمعة كبيرة متلألئة... شاهدتها لأول مرة بصحبة جدتي، فأخذت بقلبي الصغير ودهشتي من جمالها وهي ترسل بأنوارها الفضية في الصحن الشريف

المزجج السقف اللامع المبهر بفرادته ودقة صنعه، ولا أكاد أخفض رأسي حتى تشدني أخرى وأخرى تنزل من السقف بطراز مختلف أو حجم أكبر.

تململ بعضنا مغمغماً على المقاعد الوثيرة مقابل حائط سمرت عليه ساعات بتواقيت مختلفة لعواصم دول باستثناء عقارب الساعة المشيرة إلى أربيل كانت متوقفة... لا تتطيري ولا تدعي نفسك عرضة للهواجس، صدفة لا غير، صدفة... بانتظار الحافلة التي ستقلنا إلى المصايف على طريق منحدر يتباين عرضه متلوياً منخرطاً بين جبال صخرية عالية تسكنها شجيرات لم تطلها يد الإنسان ولا شوهت شكلها مقاص التشذيب، توقفنا عند شلال گلي علي بك مع حشود الناس المجتمعة حوله بينما يكابد هو خجلاً شحة مائه أمام عدسات كاميرا النقالات، وضجيج الأطفال المسابقة إلى القوارب المطاطية الصغيرة في استثارة بالغة لصمته وخيبة أملنا فيه.

انسلت حافلتنا إلى الأعلى مكملة طريقها الذي يضيق صعوداً رازحة فوقه أقدام الجبال وصولاً إلى مصيف بيخال العاج بالسواح والباعة ببضاعتهم المحلية المختلفة الصنوف والأشكال، حجزنا

ركناً من مطعم يداهم أرضيته ماء الشلال البارد في شقوق وممرات وضعت على جانب بعضها ثمار البطيخ وعلب الماء واللبن البلاستكية لأجل تبريدها، وبعد وجبة غداء دسمة شغل الكباب والتكة أغلب الصحون الممدودة على ثلاث طاولات مجتمعة ضمت الفريق وما يحمله من روح دعابة، ولو مؤقتاً بفعل السفر، فجلسنا كأصدقاء نعرف بعضنا بعضاً من سنين في ألفة وتناغم شدت أواصر الود والاحترام بيننا.

عند العودة من بيخال عرجنا على مصيف شقلاوة الساحر القائم بين الجبال كجوهرة على جبينها، الشارع الرئيسي المعبد بقطع صخرية يشق بطن المصيف وعلى جانبيه تصطف المطاعم والمقاهي ومحلات (الكرزات) والحلويات والفواكه المجففة المعروضة خلف واجهات زجاجية تسيل خيال الناظر قبل لعابه.

على أقدامنا تقصينا ذلك الشارع حتى نهايته، طفت ملامح البهجة والحبور بجمال المكان على وجوهنا، النسائم العليلة، الأضواء الملونة المطوقة لسيقان الأشجار وأغصانها في عرس ليلي تغمره النجوم ألقاً، كنا في حالة انتشاء نعبر من طرف لآخر نساوم الباعة متشكين غلاء الأسعار.

ختمنا أمسيتنا في مطعمها الكبير الذي يرتقي ناصية الشارع بطاولاته الخشبية الواسعة وكراسيه، وكعادة البصريين طلب أغلبهم السمك المسگوف، متغاضين عما ستلاقيه بطوننا في هضم وجبة كهذه ليلاً، بعد أن أظهر أغلبهم مدى براعته في اختيار سمكته وسط حوض يزدحم بها... ما كان أحد فيهما يأكل السمك بشتى أنواعه رغم محاولتي الحثيثة في ترغيبهما بأكله لاسيما الزبيدي الخالي من الشوك تقريباً كنوع من تفنيد حجتهما الدائمة بالشوك لكن دونما جدوى، هل سيكون أولادهما بمثل عنادهما؟**!**

أوشك اليوم الأول من السفرة أن ينقضي بعدما صعدنا إلى الحافلة وودعنا شقلاوة الجميلة برؤوسنا الملتفة إليها معاهدين على زيارتها مرة أخرى إن سنحت الفرصة، منظر المدينة ومصابيح بيوتها المنثورة على الجبال في لوحة تشكيلية ساحرة تمنح الناظر انطباعاً سرمدياً آسراً ستحفظه الذاكرة في أدراج ملونة رصيداً لأيام رمادية كالحة.

*** *** ***

بعد إفطار منوع الخيارات حد الإرباك، خرجت وشقيقتي من الفندق بانتظار سيارة أجرة تقلنا إلى عيادة طبيب المفاصل والكسور، أربيل في الصباح ليست بجمال المساء كالنساء تماماً، وقد بدت على وجهها آثار الشمس، ورائحة العمل العابقة من ملابس المارة المسرعين وحقائبهم السود المتخنة بالمواعيد وقصاصات الأوراق ولا تخلو من كيس بلاستيكي صغير يحوي لفافة جبن وخيار على الأغلب.

الشمس ترافقنا المسير فأضطر لارتداء نظارتي وإكمال باقي مشاهد المدينة باللون البني الفاتح، السماء، الأزهار، أرصفة الشوارع المشذبة الشجيرات، واجهات البنايات الزجاجية، وجوه المارة أو ما أفصحت عنها الكمامة، تشرد مخيلتي بعيداً، أغلق

عينيّ مطاردة أحلام يقظتي، ولكم أخشى أن تكون ملاذي الوحيد، ومهربي من حياة أبالغ في تفسير مكنوناتها وأتطرف في فهم غاياتها وأقدارها غير المحسوبة أو المتوقعة، مغالية الخوض في الماضي وتوجس المستقبل من سكين خاصرة الحاضر..

في الطريق لمحت ذات الإعلان للنجمة الغنائية التي فاتتني هذه المرة أيضاً قراءة اسمها بعد أن حالت شاحنة كبيرة بيني وبينه، تحاول شقيقتاي شد انتباهي إلى معالم المدينة في حرص منهما على إخراجي من دائرة بدأت تضيق عليّ وتلح بأسئلة لا يقرب الإنسان منها كي لا يقع في براثن حيرة اللاجواب.

العيادة أنيقة هادئة تعبق برائحة الكحول، يتمسك المرضى فيها بصمت مشحون بالقلق والانتظار، استقبلتنا الموظفة التي سبق وتواصلت معها شقيقتي، مرحبة بأهل البصرة بلغة عربية تنطق مخارجها بصعوبة يحمر لها أنفها ووجنتاها.

انتظار الدور هو الوقت الأكثر ضيقاً وتوتراً من تشخيص الطبيب ذاته، لا أدري لِمَ طاوعتهما على المجيء إلى هذا المكان وأنا الخارجة تواً من أجواء المرض ومراجعة العيادات

وفحوصات المختبرات! لمت نفسي على سذاجتها وردات فعلها غير المدروسة... ما كنت ضد رغبته وقراره... بل كنت لا تنكري رجاء... أشرنا عليه بالتروي لحين إكمال دراسته، ما كنا نعلم أنها ستتـ... ربما هذا ما تمنيته فلا تراوغي معي... لكن فات أوان الندم والوقت على مصاحبة الفريق في الجولة السياحية التي تعدها الشركة لليوم الثاني من السفرة.

دوماً كنت مترددة في حسم قراراتي، فجلست على الكرسي أراوح بقدميّ كطفل يتأهب القيام لولا شزر أمه، أمعن النظر في الوجوه الشائخة المتبرمة، العيون الباهتة في محاجرها المتعرجة الخطوط، الشفاه المتدلية فوق أسنان ضاع بعضها في رحلة الحياة واصطبغ الآخر، الأيدي المرتجفة الناشفة، خصلات الشعر البيض الكسول النافرة من الحجاب، رائحتهم العتيقة، أصواتهم المبحوحة، عصي بعضهم المسندة إلى جنوبهم بأشكالها المختلفة كواجهة محل لبيعها، متسائلة مع نفسي: هل أستعين بقدم ثالثة!...عندما أصبح بعمرهم؟! أشفقت على نفسي من قادم مجهول ما يلبث يثير في نفسي الضيق والخشية، ملوحاً فجأة بذلك الحلم في رأسي، في

أربيل سيتغير مجرى... ماذا يحدث لي في أربيل؟! فأتشبث بحبل الأخوة الثخين ومن قبله توكلي على الله.

يجرجر المرضى أقدامهم الثقيلة أو أطرافهم المجبسة نحو غرفة الطبيب واحداً تلو الآخر تحت عقارب ساعتي الخاملة، وفراغ الانتظار اللعين، ولا أجد ما أفعله سوى مراقبة المرضى كمحاولة متكررة في إزاحة زاوية النظر قليلاً عني والانشغال بتفسير حركاتهم، ردات فعلهم وإيماءاتهم، اقتناص ملامح وصفات تثري خيالي في خلق شخوص روايتي القادمة هذا إن تجرأت على الكتابة بعد طول صد وتردد... دعي عنك الكتابة يا ماما، جهد مبذول ليس وراءه من طائل، ابحثي لنفسك عن هواية أخرى (تطشين) منها...ما أدور طشة، ضاحكة ملء فمي على كلمتها الأخيرة، أظن أحياناً أن الكتابة مخلوقة تعي دواخلنا فتنقاد حروفها إذا ما تواءمت علاقتنا بها وإلا ستغدو عصية لا تطالها مداركنا.

تلج باب العيادة الزجاجي امرأة في أواخر خمسينياتها، من سحنتها القمحية وعباءتها خمنت جنوبية مسقط رأسها، تدفع أمامها رجلاً جاوزت ملامحه الثلاثين بينما ظل جسده يراوح بين الضآلة والانكماش على بدن كرسي مدولب تهرأ جلده وبان عظمه في

أماكن عدة، ألقت بنفسها على الكرسي الفارغ جواري تلتقط أنفاسها والعرق ينز على صفحة وجهها المتعب المبعوج، ابتسمت محيية بلهجة جنوبية حنون، أظنها هي الأخرى أدركت أننا ننتمي إلى البقعة ذاتها، فرددت عليها بألفة وتواضع الجنوبيين، كذلك ألقى صاحب الكرسي سلامه بأدب وكياسة قابعاً مع كرسيه عند الطرف.

وقعت نظراتي دون قصد على ساقيه الضعيفتين وقدميه الصغيرتين المقوستين نحو الداخل... اشكروا الله على خروجه من ذلك الحادث الفظيع على هذا النحو، كفكفوا دموعكم وبوجوه بشوشة قابلوه، دعمكم سيكون الفيصل في سرعة شفائه... فشعرت بالأسف على عمره المهدور رهينة تلك القطعة الحديدية الصدئة، حامدة الله على نعمه الكثيرة، ومن ثم حطت عيناي على يديه الممسكتين بالمقبض المتغضن لتستقرا على وجهه النحيل ولحيته الخفيفة غير المشذبة باهتمام حول فم رقيق نبت على طرفيه شعر باهت اللون متباعد الجذور ناهيك عن عينين صغيرتين تتطلعان بأمل رغم الانكسار البادي عليهما، تلاقت عينانا لحظة فأشحت بوجهي مع ابتسامة تدفقت على فمي فردها عليّ مع شعور بالألفة

قاطعه تقدم شاب نحوهما في منتصف العشرين حسبما خمنت، قوي البنية متناسق الجسم تبرز عضلاته من خلف قميص أبيض وبنطال جينز، يشبه إلى حد لا يدع مجالاً للشك بأنه ابن المرأة الجالسة قربي والتي بادرته بالسؤال: هاا يمه كاظم حصلت مكان تركن بيه السياره؟!

أومأ رأسه بالإيجاب، متخذاً مكانه في الكرسي المجاور لها، متأففاً من شدة زحام الشوارع هذا اليوم، فوافقته على ذلك معربة: لكن هنا أرحم من ازدحام البصرة، حدجني بنظرة متشككة لم أستطع تفسيرها، أنبت نفسي على مداخلتي وتسرعي في محادثة الغرباء بعدما لمحته يحدق بي متفحصاً، وكأنه يبحث في ملامحي عن شخص يعرفه هامساً في أذن أمه التي أخذت تتفحصني هي الأخرى من خلف نظارتها ذات الإطار الأسود السميك، ما خطبهم... لماذا أصبحوا يحدقون بي فجأة؟ حتى رجل الكرسي المدولب وزع نظراته عليّ متقصياً، فاستدرت بظهري ووجهي ناحية شقيقتيّ المشغولتين بنقاليهما في انتظار الدور.

يداهمني الشعور بتعب مفاجئ ونحول بين الحين والآخر دافعاً بي إلى لوم شقيقتيّ وتسرعي بالموافقة على هذه السفرة، لكن حينما تتصدر ذاكرتي صورة غرفتي ورتابة تفاصيلها تضيق روحي من أسر الفترة الماضية مقنعة نفسي بأن السفر ضرورة حتمية للخروج من مستنقع الكآبة الذي زحف نحوي... وهل خرجتِ؟

بعد انتظار وترقب حان دورنا دون أن أنعش فضول جارتي التي واجهتني باسئلة شخصية، مكتفية بإجابات مقتضبة عامة كورت على إثرها فمها المسور بالتجاعيد، فودعتها: مع السلامة وفرصة سعيدة... أكانت حقاً فرصة سعيدة! يا لها من أكاذيب مقيتة ترتدي لباس المجاملة، أوَ ليست المجاملة كذباً مهذباً؟!

لم تنتهِ الاستشارة بيوم واحد بل أوصى الطبيب بمراجعة المستشفى في صباح الغد لإجراء فحوصات أخرى إضافية، فخرجت متأففة متضايقة على الوقت المهدور لكني سايرت شقيقتي التي ودت الاطمئنان على حالة قدمها والعظم الناتئ منه باستشارة الطبيب الأشهر في أربيل تبعاً لنصيحة إحدى صديقاتها، وكي لا يضيع الوقت أكثر في التذمر بين أروقة العيادات استعجلنا العودة

إلى الفندق للحاق بباقي أعضاء الفريق وإكمال البرنامج السياحي برفقتهم، لا أدري!... لم أعد واثقة مما أود فعله، فمزاجي غير منضبط تحكمه الهرمونات على حد قول شقيقتيّ، وكان أن غادروا الفندق، فقضينا بقية اليوم في التسوق حيث السر في سعادة المرأة واعتدال مزاجها، ولم نأتِ على ذكر كل ما ينغص علينا ويفسد.

لوحة الإعلان تحتل واجهة البناية بأكملها ولا مجال هذه المرة لتفويت فرصة قراءة اسم المطربة ومشاهدة كل تفاصيل فستانها الباذخ الأناقة مع الإكسسوارات الثمينة اللامعة والتي أضفت على وجهها العامر الوجنتين بريقاً أخفى عمرها الحقيقي، مطبقة بالمكرفون قرب فمها مضيقة عينيها في انفعال بليغ يشد تساؤل المارة ولو للحظات عن مدى الألم الذي تكتنزه أغنيتها! لا أفهم لماذا تجتذبنا الصور الحزينة! وإن أشحنا بأنظارنا عنها، موقظة فينا شعوراً مجهولاً يحاول استلاب دمعة غامضة قد تذرفها النساء ويضن بها الرجال في متاهات مقلهم، ومض الضوء الأخضر فتحركت السيارة مبتعدة، مثلما حرصت على منح نفسي إجازة عن فتح جرار الماضي المعتقة والاستمتاع بمشاهدة المدينة من خلف نافذة عارية الزجاج.

المستشفى يعج بالمراجعين العرب في كرنفال تشارك فيه محافظات عديدة، انتهت شقيقتي من عمل الفحوصات فتوجهنا ناحية البهو المواجه لغرفة الطبيب حيث المرضى يتثاءبون على مقاعدهم، وبنظرة سريعة تعرفت على بعض من مراجعي الأمس الفائت، ولمحت من بينهم أيضاً رجل الكرسي المدولب وإلى جانبه المرأة ذاتها، أرسلت له ابتسامة ودودة فقابلني بمثلها، وبالكاد أخطو نحو الكرسي الفارغ القريب منه حتى أوقفتني نظرات ذلك الشاب المتفحصة الشزرة، فارتأيت الجلوس بعيداً عن مرماها لكن ما استطعت تحاشي سؤال نفسي وهلة عن سببها، وكالعادة انشغلت بتصفح النقال بإبهام قد أتقن عمله لولا مقاطعة تلك المرأة بتقدمها نحوي بوجه بشوش وإن طالت تعابيره أمارات حزن مثلما نبرة صوتها: ها حبيبتي شلونج؟... إن شاء الله أموركم طيبة؟!

- جاي ننتظر والله كريم، وانتم؟!

حدجتني بنظرة بان الأسى فيها لولا الابتسامة الطفيفة التي أفرجتها شفتين غار لونهما وهي تهز برأسها: إن شاء الله خير، ولدي أمين يشكو وهن عظامه وضمور عضلاته كلما تقدم به الزمن، المسكين... كفكفت دموعها بطرف عباءتها، لم تسعفني الكلمات في مواساتها، وأنا أكثر الناس فشلاً في ذلك، لكني قلت

ويدي تطبطب على كتفها: الله يكون بعونه، فاحتضنتني بملء ذراعيها ناشدة الموآزرة، تأثرت للغاية من حركتها المفاجئة نحوي ونشيجها الصامت على كتفي، هامسة: ليش هيج سويتي بأمين؟!
لم أفهم ما قصدته وظننتها قد أخطأت في التعبير قاصدة شخصاً آخر، لكن نظراتها المصوبة نحوي تبدي إصرارها في معرفة الجواب، فالتمست الصمت جواباً، كذلك هي جلست صامتة، وقد ذهب عنها فضول الأمس، وعدنا غريبتين مرة أخرى بعد أن جمعتنا لحظات حميمية خلت فيها أننا صديقتان أو مقربتان من زمن ماضٍ.

تناهى إلى سمعنا اسم أختي فنهضت مودعة جارتي بكلمات مقتضبة سريعة لاحقة بشقيقتيّ نحو مصدر الصوت، حيث الممرضة الشابة تجلس بكامل جمالها قرب المكتب المحاذي لباب غرفة الطبيب، طالبة منا الدخول، نكزت إحدى شقيقتي وبصوت خافض: شوفيها شگد حلوة! حلوووة كلش، المريض من يشوفها يصحى هههههههههه، فوافقتني الرأي هامسة: احتمال المرضى يجون علمودها هههههه.

ساعدتْ أختي في تنفيذ تعليمات الطبيب وعينيّ لا تكفان عن تفحصها، متسائلة كيف لهذا الجمال أن لا يترصده أحدهم بخاتم يطوق بنصر يدها؟! لا بد أن شروطها المغالية قد أبعدت الكثيرين عنها، لم اصغ إلى كلام الطبيب وإرشاداته قدرما دققت في شعرها الأشقر المنساب إلى خصرها المشبوك بشريط أسود كذيل حصان، شذى الياسمين المنبعث منه، قوامها الرشيق، لون بشرتها الرخامي المشرورب بماء الزهر، وعيناها حكاية، لم أستطع تبين لونهما، فسألت أختي بصوت خفيض ونكزة خفيفة بمرفقي: شنو لون عيونها؟ يا لون هذا؟!... ما لون عينيها؟! بات سؤال الجميع، وجوابي لم يرض فضولهم بقدر ما ترضيني حيرتهم في تكهن اللون، لماذا؟ آآه لماذا رحلت بتلك الطريقة؟! تنبهت شقيقتي إلى نبرة صوتها المتبرمة: هسه إحنا بيا حال؟! وانت تسألين على لون عيونها، فتبسمت قليلاً في وجهي كنوع من الاعتذار مردفة بنبرة ودودة: ما أدري، بس كلش حلوات وبيهن شبه من عيون هالـ...

حدقت فينا هي الأخرى بابتسامة تجاري فضولنا، أضفت عليها لمحة ملائكية خلابة، يا إلهي هل تدرك أنها جميلة إلى هذا الحد المدهش؟! أتراها سمعت أو فهمت ما قلناه؟

في طريق الخروج من المستشفى وتعثرنا بين ممراتها المتشابهة الواجمة، كنت لا أزال مأخوذة بجمال تلك الممرضة الشابة والأكثر من ذلك هو شعوري الغريب بالألفة معها رغم ثقتي بعدم مقابلتها من قبل، فكيف لمثل هذا الوجه أن يغشاه النسيان؟! ولا تجر خلفها طابوراً من المعجبين والعشاق! وكيف لمس اسمها وتراً في مشاعري كنبضة كهربائية مفاجئة، فعاودت الحديث مع شقيقتيّ عن جمالها حتى ضحكتا وقالت إحداهما: هاي شبيج؟! عبالك أول مرة تشوفين وحده حلوه!هههههههه...

عند البوابة لمحت رجل الكرسي مع باقي عائلته، فتوادعنا بابتسامة إلا ذلك الشاب الذي طال وجهه التجهم والعبوس كصفة ملازمة لولا أني لمحت ظهره وجانباً من وجهه المنشرح حين كان واقفاً بالقرب منها، فجال في خاطري وهلة أن يكون حبيبها، استبعدت ذلك تماماً، ساخرة من نفسي والقدر أن يجعل قلب تلك الجميلة رهن مزاج غريب الأطوار هذا، الذي لاحقتنا نظراته المتطفلة الفضولية حتى باب سيارة الأجرة، أي مخلوق هو؟! عيناه مسكونتان بالبغض! زمت فمها في رد فعل طفولي، مشيحة بنظرها نحو الأمام بذقن مرفوع ورقبة متصلبة.

يحدثني قلبي عن ولدي الذي سيملأ المطبخ بأواني الطعام المستخدمة وأبيه الذي سيلزم الصمت متغاضياً عن سمنته الآخذة بالتزايد، تركتهما خلفي هرباً من ذكريات المرض، لكن ها أنا ثانية أقضي وقتي بين أروقة المستشفى والمرضى فيتشح أفق روحي بغيوم الكآبة التي ما أبرح نفضها حتى تتشكل غيرها، يا له من طبع بائس وسوداوية قاتمة! متى أنتهي من هذا كله؟ هل أموت برفقته؟ ألن يحينَ الوقت للتحرر منه، يا لي من بائسة... يا لي؟! وأجهدتني فكرة أن أصحب معي إلى القبر تلك الأسئلة الوجودية وما ينطوي عنها من إحساس بالضياع وعبثية البقاء... مجنونة، أهذا وقت التفكير بهذه السفسطات المعتادة، لقد سئمتك، دعيني أستطلع الأمكنة.

استذكرت أفراد تلك العائلة وطريقة تحديقهم بي كأني البصرية الوحيدة ولم أصل إلى تفسير مناسب ففضلت إطلاقهم من دائرة اهتمامي، والاندماج مع أحاديث شقيقتي ومقارناتهما المرة القاسية بين قدر مدينة تجاور الشط عطشى تلسعها سياط الشمس أغلب شهور السنة، وأخرى تقيم فوق الجبال تلمس السماء، لدرجة أفقدتنا حس وحماس التمتع والتجوال، لا أعرف ما بال العراقيين! ينفقون

أموالهم في السفر والسياحة تخلصاً من روتين أيامهم وظروفهم الثقيلة ليجتروا خيباتهم في مدن بعيدة واقعين فريسة المقارنة والانتقاد.

في بهو الفندق الأنيق أصادف الكثير من العراقيين العرب بلهجاتهم المختلفة فأشغل نفسي في تكهن اسم المدن القادمين منها... للآن تخفي علينا اسم المدينة التي تقيم فيها، كم جربت معها معرفة عنوانها! عنيدة لطالما كانت عنيدة وحالمة، لكن لم أتخيلها بهذه القسوة! كيف أمكنهما هجرنا؟ لا أصدق كيف فعلا ذلك بنا! لا أصدق! ثلاث سنين وما بحوزتي من أخبار عنهما سوى النزر اليسير، أهذا جزاؤنا؟! ربما كما يردد أبي أننا قد أخفقنا في تربية أولادنا، حقاً لا جواب لفعلتهما سوى أننا أفرطنا في تدليلهم...

العمال منشغلون بتوظيب وتهيأة مسرح كبير في الجهة المجاورة لبركة السباحة، كراس وطاولات، بالونات بألوان وتشكيلات أنيقة، مصابيح ملونة تزين فضاء الحديقة وتلتف نازلة على سيقان الأشجار، فطاب لي مراقبتهم عبر نافذة البهو العريضة، شقيقتاي في الغرفة تستعدان لبرنامج المساء، لا أجد

رغبة في الخروج والمجاملات، أخطأت بالقدوم، مزاجي لا يزال مرتبكاً ومثله جسدي ضعيفاً واهناً.

لا أزال كالأطفال في سرعة إغوائهم بالمطارات والحقائب، لحظات الترقب الممزوجة بالخوف عند تحليق الطائرة وارتفاع عجلاتها عن الأرض في فعل معاكس للجاذبية الحمقاء التي أحلم بالانفكاك من حدودها والشعور بخفة التخلص منها دون أن تطالني أذرعها الأخطبوطية... ذات مرة في أحد المطاعم البحرية جاء النادل بسلطة خضروات مع قطع صغيرة بيضاء خلتها جبناً وحين اكتشفت أنها قطع من أذرع أخطبوط مسكين وددت نزع معدتي وأنا أتخيله مبتوراً بلا أذرع ينظر بعينيه الغائمتين حسرة إلى أواني السلطة والنادل يتناوب في حملها نحو الموائد... يا لهذا الخيال اللحوح على طرق أبواب الطفولة: إفتح يا سمسم أبوابك نحن الأطفال، كبرنا يا سمسم على أبوابك...

موظف الاستقبال ينبهنا بعربية مكسرة إلى موعد الحفلة المقرر، تفرق الجميع لغرفهم استعداداً لحفلة المساء، ولولا أن شكلي بدا محرجاً بجلوسي وحدي في صالة الاستقبال لمَّا صعدت إلى

الغرفة، فلا رغبة لدي في تغيير ملابسي والتظاهر بسرور السياح وانقيادهم لأجواء المرح التي يكفلها السفر.

لم أجد في حقيبتي ما أرتديه للحفلة المزمعة... لن أطلعك على تصميم فستان زفافي، سأجعله مفاجأة لك، وأي مفاجأة! هكذا أضمن عدم اقتنائك لواحد مماثل له أو قريب التصميم منه هههههههه، سأدخل به عليك عروساً، وقبل ذلك الموعد لن تريه أبداً... ما قالته مازحة بات حقيقة ثقيلة موجعة، فلم أشهدها في فستان طويل الذيل أنيق تجره خلفها على سجادة حمراء تنتهي عند منصة فخمة مزينة بالأزهار الطبيعية تتربع ساحل البحر، تماماً كالأفلام الرومانسية والأغاني التي استنزفت وجداننا بوهم الحب الأبدي الذي لا يتسع له الواقع المكبل بروتينية أيامه وتكرارها الممل.

ما كان همها سوى اقتفاء أثر ذلك الحب المثالي المستحيل حتى لو كان الثمن هجرنا، آآه يا ابنتي هل كان الأمر يستحق؟! أبيت كل ليلة ولساني يلهج بهذا السؤال وفي قلبي رجاء أن الأمر يستحق، وأنك وجدت ما عجزت أمك عن إيجاده وفرغت من الإيمان به، بنيتي لا شيء يعنيني أكثر من سعادتك فكوني كذلك،

وأنا سأكتفي بصورة باهتة بعيدة لعروس يحجب خمارها الأبيض الدانتيل الناعم الكثير من صفحة وجهها الرقيق.

المسرح الكبير أمسى مهيأً لاستقبال المطربة، والطاولات تضج بالوجوه المترقبة لحظة صعودها بعد أن بدأت الفرقة الموسيقية عزفها... شعرت بالابتهاج حين سمعتك ذات مرة تحاول العزف على عود ابن الجيران الذي أبدى رغبته الصادقة في تعليمك وصقل موهبتك الجديرة بالاهتمام، آآه ما ظننت أبداً أنك... وشقيقتاي في اندهاش من تزاحم الناس لحضور حفل المغنية التي شغلت إعلانات حفلاتها وسائل التواصل فاستقبلها الحاضرون بتصفيق حماسي كبير، فستانها الفضي اللامع يجر خلفها ذيله، كاشفاً عن أعلى صدرها البرونزي وعنقها الذي تدلى منه قرطان براقان يضفيان فخامة على مظهرها المتناسق، اعتلت المنصة بهيبة وصدح صوتها الجهوري الحنون فتمايلت الرؤوس طرباً وانتشاءً ناهيك عن التصفيق والتصفير بعد كل أغنية، ولم تفارقهم النشوة حتى بعدما انتهت الحفلة وذهبت المطربة يسورها نفر من الحراس الشخصيين الضخام الجثة، وحولها المعجبون المطالبون بصورة (سلفي) أو توقيع.

استرسلت شقيقتاي في وصفها، تاجها الكريستالي الناعم الذي تقدم تسريحة شعرها البني المنسدل في خصل خفيفة سترت جزءً من عنقها ولم تخفِ جماله، وشعرتا ببعض الغرابة من بحة صوتها القريبة الشبه من صوت الرجال رغم أنوثتها الطاغية، مثلما أحسست بأني قد التقيتها مسبقاً أو أعرف شخصاً يشبهها وقبل مراجعة سجل ذاكرتي لاح في خاطري سؤال أعرف إجابته مسبقاً لكني بادرت به كنوع من الانسياق للوهم: أما لمحتماه بين الموسيقيين؟!

أوشكت دمعة أن تنساب من مقلتي لولا مداخلة شقيقتي المازحة حول فستان المطربة وهجومها اللاذع على الرجال وعلى عيونهم المزروعة أعلى الصدر: عيون فارغة لا يملؤها سوى التراب وطفقنا نضحك من غريزة أودعها الله فيهم كعذر يتدارون به عن شراهتهم.

***　　　***　　　***

لم تكتمل نتائج الفحوصات في المستشفى بيوم واحد كما كان متوقعاً مما اضطرنا إلى معاودة الذهاب في صبيحة اليوم التالي، وددت التقاعس عن ذلك لكني فضلت رفقة شقيقتيّ على البقاء وحيدة أتبع وسوسة عقلي ومتاهاته المربكة... لن أمضي بقية عمري هنا، لست بالمجنونة حتى أبدده في وطن يدفع بأولاده إلى المغادرة بتذكرة ذهاب بلا إياب.

- لكن نحن ماذا عنا؟! هل يسهل عليك فراقنا؟!

- هذا حال الدنيا يا ماما، مشيحة بوجهها متحاشية نظرتي المستعطفة... ارتديت ملابسي على عجل كي لا نتأخر .

بين أروقة المستشفى البيضاء ورائحة الكحول والمطهرات المنبعثة تتقلص مسام روحي ويضيق صدري بشكل غامض في دعوة إلى الاستسلام لعبثية حياتنا وأحلامنا ما دام الموت يتربص بها، أجر خطواتي المتباطئة خلف شقيقتيّ المتعجلتين على طابور الانتظار... ما ظننت يوماً أن ترحل تاركة خلفها رسالة وداع مقتضبة، وطلب جاد في عدم انتظارهما، لكني انتظرت، أصخت السمع لكل دقة باب، أو صوت مفتاح يدور في قفله، أمست حواسي متيقظة لكل إشارة ودليل قد يقودنا إليهما، فتشت بين أوراقهما ولم أجد ذلك الخيط الذي أملت أن يشي بمكانهما، فانتظرت أن يرق قلباهما، وكم كنت مجنونة؟!... تشدني إحدى شقيقتيّ فجأة: أنظري إلى صديقتك الجميلة واقفة هناك، لوهلة لم أفهم ما عنته، لكن رقبتي استجابت مستديرة نحو إشارتها فلمحته بالقرب منها، مدنياً برأسه نحوها في انسياق لا إرادي لسطوة جمالها الباهر، شعرت بضيق من مرآه وحمدت الله أن كان مشغولاً أو بالأحرى مجذوباً بالحديث مع تلك الساحرة... تراه ماذا يقول لها؟ وأي شيء لديه يكفل له المثول في محراب جمالها؟! أهو الحب؟... ما من أمر نتورط فيه وننقاد له بإرادة واعية أو مجنونة أكثر منه... نعم هو ذلك الذي سرقهما مني وإن اختلفت الظروف:

ماما أنا وأشرف مسافران نلحق بأحلامنا، فلا تبحثا عنا، تحياتي لك وإلى بابا... لا أفهم لماذا تنمو الأحلام وتمد فروعها خارج شمس الوطن وسمائه!

وددت من أعماق روحي أن لا تكون حبيبته، لكن ابتسامتها، نظراتها إليه خيبوا رجائي... يا إلهي إلى ماذا تنظر منتشية؟ وجهه المغبر؟ ملامحه القاسية؟ أم عيناه المظلمتان كنفق يسترعي الحذّر والانتباه... وهل يتفق الحذر وهو ابن العقل مع الحب؟!... لِمَ هي غبية! لا تحتاج سوى أن تشير بإصبعها كي يتهافت عليها العشرات، ما لها وهذا المتوحش؟!... ليتني أملك السبب لجرها من يدها عنه، أنزع الغشاوة عن عينيها لكن ما حيلتي سوى الحسرة والصمت على قلوب تهوى حد الضلالة... موقفك هذا هو من أبعد ولديك عنك...لا بل قولي جنون الحب وفورته.

جلسنا في الممر المقابل لهما بانتظار الدور، حاولت إشاحة وجهي عن النظر إليهما دون فائدة، فراقبت كل إيماءة وحركة تصدر عنهما ولاسيما تلك العاشقة التي يحمر خداها، تلمع عيناها وتبرقان، تلم يديها تحت ذراعيها خشية تسلل إحداهما نحوه، مارة على وجهه أو ماسحة على جبينه، مجنونة لا تدع أمامه شكاً في

افتتانها به، يا الله أهكذا الحب يعمي البصر والبصيرة؟! سألت شقيقتي فضحكت مني: دعيهما، فموسم الحب لا يأتي كل سنة إسوة بالمواسم الأخرى، مططت شفتيّ بابتسامة آلية بليدة... ماذا يفعل الناس في موسم الحب؟ أي ملابس تقيهم من حرارة أشواقه وبرودة شكوكه وخيباته؟ أيذهبون إلى الشاطى لاصطياده؟ أم يستهلكون أغاني الحب ليلاً والصوم نهاراً عن معاقرة دموعه؟! لا أظن أن شقيقتي قد وفقت بهذه التسمية.

يمد يده الخشنة مباعداً خصلة ناعمة عن وجهها الذي يتهلل بالفرح متورداً كأنه يتوجها، هذه المجنونة سوف تقتلني، أستدير بجلستي وأعطي لهما ظهري، لا أود أن أكون شريكة في هذه المهزلة ولو حتى بالنظر، شاهدة على مشاعر ما تلبث أن يطفئ جذوتها الواقع بظروفه وملابسات الحياة بكل خذلانها وتوقعاتها المضللة الغبية... هل صديقتك معتوهة إلى هذا الحد كي تجري خلف حب مستحيل؟! ألم تضع في حسبانها كل الاعتبارات التي تحول دون ذلك!... آآآه ما ظننت أن تلك الصديقة هي أنت! وأنني أمك الغبية التي لم يدر في خلدها أن ترحل ابنتها لأجل حب طائش محرم غذته الأفلام والمسلسلات التركية!

غرفتها هادئة صامتة، ينساب الضوء إليها خافتاً أخضر عبر ستارة القديفة، بقايا عطرها لا تزال تعوم بين ذرات الهواء، مبعثرة أشياءها على الأرض كالعادة لكن الفارق هذه المرة أني لن أتذمر في وجهها: يا لك من فتاة مهملة كسول! كذلك هي لن ترد عليّ متثائبة من خلف عينين ناعستين، مستلقية على سريرها تختبئ كقطة بين دماها المطروحة جنبها في تواصل حميم وألفة حسدتهم عليه: دعي كل شيء مكانه، لا تقلقي نسق الحياة في غرفتي بقوانينك.

بقايا شعرها على المشط المتروك بإهمال على طاولة الزينة وقد خف بعض حملها من مستحضرات وعلب التجميل، باب خزانتها الموارب يكشف عن فراغ ونقص في قطع ملابسها، فانقبض قلبي وأسرعت نحو المنزع، هو الآخر يشكو فقدان حقيبتي سفر، دوار أمسك برأسي، خارت قواي، ضعف سرى في عضلة ساقيّ وتشنج في بطني لكني هرعت نحو غرفة أشرف، رائحة سجائره تعبق في المكان وخزانة ملابسه خالية إلا من بضع ثياب قليلة مهملة صامتة، دب الفزع إلى روحي فأطاح بي عند عتبة باب غرفته مغشياً عليّ.

قضينا الصبيحة نتنقل من غرفة شاحبة إلى أجهزة بكماء حتى اكتملت كافة الفحوصات التي أوصى بها الطبيب متوجهين نحو غرفته في الرواق، وبين تذمري واستعجالي تباغتنا الصدفة وجهاً لوجه وما أكثرها منذ حطت قدماي أربيل! لم أحسن إمساك تعابير الاستياء التي بدت عليّ، كذلك هو كشر عن أسنان علاها النيكوتين حين أرخى فمه وقطب حاجبيه فوق عينين تقلصتا مستنكرتين، لحظة ظننتها دهراً فأشحت بوجهي الناحية الأخرى حيث الممرضة الشقراء وقد تضمخ وجهها بالدم حمرة وانفعالاً حال من ردها للتحية بشكل طبيعي... ما بالها؟! يبدو أن ذلك المتجهم قد لوث صفاء روحها وفطرتها حتى باتت تنظر نحونا بطرف عين متحاملة! ليتني أفهم سر حقده، هذا الأحمق... آه لو أذكر أين صادفته؟ ذاكرتي تخونني بل باتت تسبب لي الحرج في مواقف كثيرة فارتجل الابتسام والتظاهر.

انطفأت ابتسامتها الجميلة وروحها المرحة وهي تنادي باسم شقيقتي للدخول على الطبيب، لكني لا أزال مأخوذة بعذوبة جمالها الباعث في النفس ذكريات بعيدة غامضة وأطيافاً ضبابية تتصاعد نحو مقدمة الذاكرة ثم ما تفتأ تتلاشى، أطلت التركيز في تقاطيع

وجهها وهيئتها بينما هي مشغولة بتنظيم ملفات المرضى وأرقامهم، سقطت عينايّ على أصابعها البيضاء الرقيقة وصبغ أظافرها الهادئ اللون... جفت قاروراتك الثمينة المنتقاة، هل تدعك حفيدتي تلونين أظفارك كما السابق؟ أم تربكك بيديها الصغيرتين مثلما كنت تفعلين معي؟ واجتاحت مقلتيها دموع كفكفتها على عجل بظهر يدها... ما كانت تحب اللون الزهري كما تفعل أغلب الفتيات.

بعد صبيحة مملة انتهت ساعاتها في المستشفى صعدنا إلى الغرفة لأخذ قسط من الراحة، تمددت على سريري، أفرك قدميّ المتعبتين على شخير شقيقتي التي غطت في النوم قبل أن تلقي برأسها على الوسادة، أما الأخرى فأخذت تتصفح نقالها دونما اهتمام متكئة على رأس سريرها تصر على رأسها بأصابعها كنوع من طرد الصداع وتحجيمه حتى وثبت من فراشها نحوي وقد تملكت ملامحها الدهشة والسؤال: نادية.. نادية.. أنظري جيداً، بالسبابة والإبهام قربت الصورة، أليس هذا أشرف؟!

نصف قفا ونصف وجه بعيد ضبابي وجانب من شعر أسود لامع يسترسل على الكتف، لكن الأمر المؤكد والواضح عنق آلة

العود القابض عليها بأصابع ناعمة رشيقة، وتلك المغنية المشهورة التي أحيت إحدى حفلاتها قبل يومين في حديقة فندقنا، رمقنا بعضنا بالنظرة المتأهبة ذاتها وبسبابتها المتعجلة أخذت تفتح روابط الصور والمواضيع المتعلقة بتلك المغنية بحثاً عن مكان أو اسم الفندق الذي تقيم فيه حالياً.

بعد جهد واتصالات بين موظف استقبال فندقنا وزملائه من فنادق أخرى أشاروا إلى الشيراتون، حيث اجتزنا حدائق واسعة خضراء يكللها ورد الجوري ومطعم صيفي للشواء بكراسيه الأنيقة، ولجنا الباب الزجاجي الدوار متوجهتين نحو موظف الاستقبال الذي سهل علينا مهمة مقابلة المغنية بعد عناء وتوسط طالباً منا انتظارها في القاعة حتى موعد نزولها غير المؤكد أو المعلوم.

بعدما يقارب ثلاث ساعات انتظار منَ علينا مدير أعمالها كنوع من التعاطف الإنساني بمقابلتها لخمس دقائق لا أكثر بعد إخفاقه في التعرف على هوية صاحب العود مبرراً ذلك بحداثة عهده في العمل معها، مشيراً إلى أن بعض الموسيقين يتغيرون من حين إلى

آخر. في جناحها الكبير الفخم انزوينا أنا وشقيقتي في الركن القريب من باب الصالون في شعور بالغ بالإحراج وتأهب للفرار.

دقائق من الترقب حتى أطلت علينا بقيميص نوم حريري مريش مفتوح على صدر صدأ لونه في سباق عتيد مع الموضة، لا شيء فيها طبيعي، صورتها عن بعد أجمل بكثير من هذه الملامح التي مر عليها المشرط مراراً وتكراراً.

تلاقت نظراتنا وهلة، إحساس غريب انتابني، زاغت بعينيها نحو الفراغ في نظرة جامدة قاسية لم أفهم سببها، فخلتها نوعاً من خيلاء وتكبر المشاهير، استهلت شقيقتي الحديث معها، بالترحاب والثناء على عذوبة صوتها وأغانيها، الذي قابلته بمطة شفتين مثقلتين بالفلر، فنكزتها بالمباشرة في سؤالها، عارضة صورة صاحب العود عليها: ما اسم هذا الشاب من فضلك؟!

تمعنت في الصورة، ضاقت عيناها واستطال فمها أكثر قبل أن ترد بنبرة باردة: ما شأنكما به؟! رافعة ذقنها الصناعي المدبب في شموخ ترك فينا إحساساً بالشحاذة، فكان أن ردت عليها شقيقتي بنبرة معترضة: أنا خالته، وهذه أمه، مشيرة نحوي بطرف وجهها

مستعجلة سماع الرد الذي خرج فاتراً من تحت أضراس بلورية وابتسامة هوليودية: كان في فرقتي وخرج منذ مدة.

- ما اسمه؟

تنحنحت وزمت شفتيها ولاكت كلماتها متوجسة: أمممممممممم، عاصرة ذاكرتها، أظنه شرف... شريف... لا أذكر جيداً.

- بل أشرف!
- نعم أشرف، هو ذاك، كيف أساعدكما؟
- هل تعلمين أين هو الآن من فضلك؟
- صراحة لا أعرف عنه شيئاً، انقطعت أخباره، لكني سمعت أنه تعاقد مع فرقة أخرى... لست متأكدة، كان شاباً صامتاً لا يجيد الحديث إلا مع عوده، ما باله لماذا تبحثون عنه؟!

رمقت إحدانا الأخرى بحثاً عن جواب، فانكمش وجهانا وتعثرت الكلمات على لسانينا... لن أبقى قربك أمي، أنا أختنق، أختنق، افهمي أنك تخنقيننا، ما هكذا الحب، سأشق طريقي بعيداً عن سمائك، ما عدت ذلك المراهق الذي حرمته من... بقيت صامتة فيما تكفلت شقيقتي عناء سرد مبررات وأعذار للمغنية التي غمغمت بجمل متقطعة ليست بالواضحة لكن مغزاها وصلني، فأطرقت برأسي ولم أملك الرغبة في إقناعها بأني كنت أبحث عن مصلحته كأي أم.

شعرت بالسوء وأنا أقف أمام تلك المتكبرة كمتهمة لا تجد ما تدافع به عن نفسها... من أعطاها الحق في الحكم عليّ أو حدجي بتلك النظرات المتعالية من خلف رموش بلاستيكية؟! ما كان علينا مقابلتها حيت جلست أمامنا فاردة صدرها، كاشفة عن ساقين برونزيتين ملتفتين على بعض من خلف قميصها الحريري، أهكذا يستقبلون الضيوف بملابس نومهم؟! فانسحبنا بملامح شاحبة نز منها عرق الخجل رغم الجو المكيف، وإحساس الخيبة يجثم على صدرينا.

عبر نافذة سيارة الأجرة داعبت النسمات وجهينا مخففة من ضراوة الصمت العالق بحنجرتي دون أن أقوى على الكلام أو التبرير لنفسي وشقيقتي التي انهالت على تلك المرأة الصناعية على حد قولها بالشتم والانتقاد اللاذع.

استغرقت في شرودها تاركة خلفها مدينة مهتاجة بأنوارها ومحلاتها المكتظة بالبضائع والناس بينما أخلدت شجيراتها إلى النوم بعد نهار مشمس... أرجوك أمي، خذي النقال واتصلي بأمها، أرجوك أمي اتصلي بها، أخبريها أن أشرف عند كلمته لشيماء التي عنفها أهلها بسببي بعد اطلاع أخيها على إحدى

مسجاتي لها، آثار الكدمات تلون جسمها، منع عنها النقال وكذلك الذهاب إلى المدرسة، رجاءً ماما لا تخذليني واتصلي بأمها لتطمئن من صدق نواياي تجاه ابنتها التي... مجهشاً في البكاء يتلوى على نفسه، يهرش جلده بهستيرية كمجذوب أو مدمن لا يملك من أمره شيئاً، هالني ومزق فؤادي منظره، لكني تداركت أمري رافضة طلبه جملة وتفصيلاً ... يا له من ولد! كيف سيطرت تلك الملعونة على عقله وقلبه؟ لم أره بهذا الشكل المستميت من قبل، رافضاً سماع أي كلمة ضدها، لا أفهم كيف تسللت إلى حياته فخربتها... من تراه خربها أنتِ أم هي؟!

توجهنا نحو غرفتنا وكلمات تلك المتعجرفة المتصابية ترن في رأسي، لا أدري لماذا شعرت أنها تخفي أمراً بخصوص ولدي! كانت عيناها تتلمضان ونبرة صوتها المرتعشة تشي بمعرفتها المزيد من أخباره رغم برودها المفتعل، فانكفأت على نفسها في الفراش تجتر الذكريات حتى غفت دامعة العينين.

***　　　　***　　　　***

لا أعرف من زكى أو أقنع المشرف على برنامج السفرة بفكرة زيارة معرض الكتاب المقام في أربيل تزامناً مع وجودنا، فكرت في الرجل الأشيب ذي النظارات مدرس اللغة العربية وزوجته مديرة إحدى المدارس، من غيرهما يطمح بالذهاب إلى معرض للكتب؟ لكني دهشت من إقبال الشباب والشابات على الشراء والمطالعة فحمدت الله على ذلك.

تجولت بين أروقة المعرض، دور عربية عديدة وعناوين كثيرة تنسجم مع ذائقات مختلفة، في إحدى الأركان لمحت جمهرة بعض من الناس وحين اقتربت أدركت أن أحدهم يوقع خدراً مبتهجاً مجموعة من نسخ كتابه، تقدمت اشتريت الكتاب كنوع من الموآزرة لزميل منتظرة دوري في مهر توقيعه عليه، "ما بعد

الفردوس" عنوان مجموعته القصصية، وددت أن أسأله: أمن مكان أو هدف بعد الفردوس! لكني احتفظت بظرفي أو ما يظنه بعضهم سماجة وعفوية غير منضبطة قائلة: بالتوفيق، فارتفع شاربه عن صفي أسنان مرتبة زادت من جاذبية ابتسامته، وبيد متوترة قليلاً خط بحروف ناعمة اسمي وتوقيعه راغب الساير ٢٠٢١/٦/١٩، متمنياً لي قراءة طيبة، وافقته بهزة رأس خفيفة وابتسامة لا أملك سوى ردها ولو في أتعس أحوالي، ولا أعرف إن كانت تلك القابلية منحة ربانية أم بلادة فطرية؟!

استوقفني اسمه قليلا، وابتسمت لتشابه الأسماء ومن ثم ألقيت نظرة سريعة على السطور الأولى، ولمحته يراقب عبر الزجاج خطواتي المبتعدة، فاستقمت بظهري شادة كتفيّ للخلف في ردة فعل لا إرادية لامرأة تحرص على ظهورها بشكل لائق دوماً.

انتابني بعض من الندم لعدم سؤالي إياه عن السر خلف تلك التسمية "ما بعد الفردوس" فشرعت أتخيل أن البشر سيفرون من الفردوس بعدما يصيبهم الضجر والملل... هل يلاحقهم الملل ثانية؟! أم يحملونه في جيناتهم كمرض يتفشى بينهم على حين غفلة مهاجماً جينات القناعة والرضا المزروعة حديثاً في أجسادهم؟!

كيف غفل الله عن ذلك الأمر؟! اضطرابات وموجات سخط تتصاعد بين أهل الجنة، القصور وجنان الفاكهة والأنهار، حور العين والولدان ما عادت تقنعهم، ثمة شيء آخر مفقود لا يجدونه في الفردوس، شيء كبير لا يندرج تحت مسمى أو صفة لا يستطيعون بلوغه ولا التعبير عنه، هوة مظلمة تنبثق من مجاهيل النفس محطمة سلامها وهدوءها، اجتماع طارئ مع الملائكة بخصوص الوضع الراهن، مناقشات وصيغ حلول تطرح على طاولة الرب، هرج ومرج، عصيان وتمرد يسري بين صفوف المؤمنين، ليلحقوا بجهنم وبئس المصير، أحد الملائكة قال، فرد عليه آخر: كيف ذلك وهم زمرة الأخيار الطيبون؟! بناء سجون ومراكز تأهيلية وتهذيب، تشدق بها أحدهم على مرأى من دهشة الآخرين: سجون في الجنة للعباد الصالحين!؟ يؤجل الاجتماع على إثر حملات تخريب تعم طوابق الجنان السبعة، دوي صفارة إنذار وحظر شامل حتى حين... لا بد من انزال أقصى العقوبات على المتمردين قالها كبير الملائكة في الاجتماع الأخير. سخرت من نفسي على خيالاتي هذه، وراودتني فكرة تدوينها في سطور أتركها على جنب حتى يحين تدوينها في عمل روائي كعادتي في تجميع الأفكار والمواقف.

أكملنا تجوالنا بين أروقة المعرض، استوقفتني بضع عناوين واشتريت بعضاً منها في شهية للشراء والقراءة المؤجلة، كذلك فعلت شقيقتايّ ومعظم أفراد الفريق خرج من المعرض يحمل كيساً بلاستيكياً فيه بعض الكتب... عدوى الشراء هي لا غير، أغلب الظن أن الغبار سيحط عليها قبل أن تمتد نحوها اليد... أحسني الظن وتفاءلي، لا يزال بعضهم شغوفاً بالقراءة والكتب فلا تفقدي الأمل... رأسي فارغ رغم ازدحامه مثلما روحي مثقوبة لكن حملها لا يزال ثقيلاً، جربت طرقاً عديدة كي أعاود الكتابة دون فائدة، قلمي بات أبكم لا يجد ما يروي به ضمأ السطور، وأصابعي عمياء ضاعت منها أزرار الحروف، مأساة حقيقية وورطة كبيرة حينما يحط القحط على وجدان الكاتب ولا تثمر حقوله... إن طالت فصول الكساد لا بد من إشهار إفلاسي والكف عن اجترار عناوين كتبي السابقة على صفحة الفيسبوك... لكنك لست بالأولى ولا الأخيرة، جمع غفير يشاركك مائدة الخواء ونخب مجد ماض غابر.

لم تسترع انتباهي وتثر فضولي العناوين الكثيرة قدرما فعل عنوان ذلك الكاتب الذي شيعني بنظراته المتفحصة حتى آخر

الرواق، هل تقابلنا مرة في أحد المهرجانات أو المناسبات الأدبية؟ لا أظن، لكني لا أمتلك ذاكرة موثوقة أستطيع الركون إليها، قد يكون أحد أصدقاء الفيسبوك الكثيرين، حيث معنى الصداقة مجرد من مفاهيمه واعتباراته الكلاسيكية ويتسع الآلاف، سأتصفح كتابه قبل الجميع... ألأنه حباك بنظرات خاصة مبهمة أم عنوانه المستفز؟!

بعد تناول العشاء في مجدي مول وتخبط الفريق بين البراندات التجارية المختلفة تجمعنا في المرأب الواسع المطل على الحدائق المحيطة بالمول حيث أقلتنا الحافلة عائدين إلى الفندق، أسرعت في الصعود إلى الغرفة قبل شقيقتيّ اللتين انشغلتا بالسؤال عن برنامج يوم الغد وساعة التجمع في البهو. تمددت على فراشي بعد انتهائي من تغيير ملابسي وتنظيف أسناني وغسل وجهي من بقايا المكياج على نحو أسرع من المعتاد أتاح لشقيقتي المزاح والسخرية من تباطئي المعهود في انجاز الأعمال.

إحساس يستفزني رغم التعب إلى سحب الكتاب المتصدر المجموعة فوق الطاولة الصغيرة المجاورة لسريري، فمددت يدي ملتقطة وبدأت أتصفح العناوين الداخلية وأوائل سطور الصفحات

للاطلاع على أسلوب الكاتب ومتانة لغته التي جرتني إلى سطر تلو الآخر وصفحة تلو الأخرى مندهشة من تقارب الشبه بيننا... لا ليس بالمعقول أن أشهد أفكار قصصي وليدة على صفحاته قبل أن أدونها أنا نفسي!... يا إلهي ما الذي يحدث! أمعقول أنها صدفة وتناص كما يقولون؟ كيف لرأسينا حمل الأفكار ذاتها، من يصدق أن هذه قصصي المؤجلة، شخوصي وأبطالي! كل خواطري مع نفسي! لص هو، نعم لص، يا الله أنه لص، سرق خميرة فكري وسبقني إلى كتابتها، هذا الكتاب اللعين لا يجب أن يحمل اسمه، هي قصصي، أسلوبي وأدواتي! أي تناص ملعون هذا! لا أصدق كيف له السطو على عقلي وانتزاعها منه! راغب الساير ويحك يا لص، سأفضحك في الوسط الأدبي، إنها تماماً قصصي المؤجلة! أكاد أجن، بل سأجن حقاً، سرق كل شيء العنوان والأسماء، وأخذت تتصفح بارتباك في محاولة لتفنيد ظنها بإيجاد قصص مختلفة وحوادث لم تفكر فيها لكن النتيجة خيبت أملها، وجاءت القصص صورة طبق الأصل لما يكتنزه خيالها ولم تسعها الفرصة لتفريغه على الورق....

تأخر الوقت لكن لظى نارها لا تبرد، لن يفهمها أحد أو يتقبل كلامها، هي نفسها مصدومة لا تعرف تفسيراً منطقياً لما يحدث معها سوى أن لصاً قد تسلل إلى دهاليز عقلها وسرق بنات أفكارها وقصصها، حاولت أن تشرح الأمر لشقيقتيها اللتين فغرتا الفم دهشة واستبعاداً لما تفكر فيه... أختى هو لا يعدو أكثر من تشابه أفكار، وهذا الأمر وارد في الأدب.

- ليس بتشابه أفكار، بل هي قصصي ذاتها، أرجوكما افهماني!

لوت فمها يمنة ويساراً كعادتها حين لا يروق لها أمر، قائلة بعد صمت وجيز: لا أدري ماذا أقول لك يا نادية، لكن هل في محفظة نقالك مسودة لواحدة من تلك القصص؟

- ألم تسمعي؟! أنا لم أدون أي واحدة قط، أتركهن يختمرن في رأسي.

إيماءات وجهها كانت رداً كافياً لإخراسي، لكنها أردفت من باب المجاملة: هو توارد خواطر وأفكار، هيا اخلدي إلى النوم.

تخلل نومي المتقطع أحلام مزعجة لا أذكر تفاصيلها فصحوت بصدر مثقل وروح نكدة، تمنيت أن ما اكتشفته البارحة غبار حلم

لا يزال عالقاً في ذهني لكن الكتاب المتمدد فوق المنضدة شد حواسي فالتقطته أتصفح بيأس، لم يتغير شيء القصص ذاتها، لم يكن حلماً، ماذا يجري معي؟! أهو كابوس لا أفرغ منه! قرصت نفسي كما يفعل بعضهم، نهضت من فراشي نحو النافذة مزيحة الستارة عن بركة الماء الغافية وورود الجوري المتفتحة تواً، شقيقتاي ما تلبثان تغطان في النوم، وقفت بضع دقائق أرقب نسمات الهواء تدغدغ ضلوع الشجر وتلاطف الأوراق، حسدت الطبيعة على صفائها متأففة أن لا أكون إحدى تلك الأشجار.

لم أستطع التحلي بالهدوء وضبط النفس رغم محاولاتي الجادة، فحالما أنهيت الفطور قررت العودة ثانية إلى المعرض كي أجد تفسيراً لكل أسئلتي من ذاك المؤلف أقصد اللص، باحثة عنه بين أروقة المعرض، ركن الأمس خالٍ، استفسرت من إدارة المعرض عن عنوانه، فلم أحصل على جواب أو معلومة كافية وكل ما فهمته أنه كاتب حديث العهد عاد بأدراجه إلى البصرة من حيث أتى... هو بصري إذن! نعم وهذا ما يفسر سطوه على قصصي... هل أنت مجنونة؟ قصصك المدعاة لم تقدمي حتى على تدوينها فكيف له بسرقتها من رأسك؟!... لا أدري، لا أدري هذا ما يشل عقلي

عن التفكير، كيف تسربت له وسبقني إلى تدوينها وطبعها... اتركي عنك هذا الأمر وإلا سيتهمونك بالجنون... هو الجنون ذاته ما أنا بصدده، كيف تسنى له تعقب أفكاري وتبنيها باسمه؟!... ما من دليل يثبت صحة إدعائك، فكفي عن ترديد واجترار الكلام ذاته... كفص ملح ذاب، لا أثر له، في البصرة سأسأل عنه، لا بد أن أعرف حقيقته، شاعرة بدوار وتوتر أقعدها في إحدى المقاهي الموزعة في أركان المول طلباً للقهوة والتقاط الأنفاس.

وددت لو أقطع السفرة لاحقة به، لم أسمع باسمه من قبل... وكأنك تعرفين كل الكتاب! بحثت عن اسمه في الفيسبوك ولم تتوصل إلى صفحته، كذلك بحثت على گوگل ولم يسعفها بأي خبر عنه أو عن كتابه... هل أتصل بأحد الأصدقاء مستفسرة عنه؟... وكيف تفسرين له سر اهتمامك بذلك الكاتب؟ لا تكوني معتوهة، ليس من أحد سيصدق هرطقتك ما دام ليس هناك من دليل مادي على سرقته، بالله عليك أسمعت أحداً من قبل سرق بنات أفكار؟... ما تفسيرك إذن، حتماً أنا سأجن، أمعقول أن كلينا واتته الأفكار ذاتها؟ إلى من أبث همي وشكواي؟! وأقرب الناس إليّ لن يصدقني، حالما أعود سأجده مهما كلفني الأمر. اتصلت بأحد

زملائها المقربين الذي نفى معرفته تماماً بذلك المؤلف... لا ضير في البصرة سأصل إليه مهما كلفني الأمر، ونهضت من كرسيها بعد تناولها آخر رشفة من كوب قهوتها عائدة إلى الفندق.

بهو الفندق مكتظ على غير عادته، لكن فريقنا غير موجود وبضمنهما شقيقتاي اللتان أوصيتا موظف الاستقبال باطلاعي على أمر التحاقهما بباقي الفريق، ومنه عرفت أيضاً عن انعقاد ندوة في قاعة الفندق الكبيرة بخصوص تداعيات الحروب وأثرها الشديد على الأطفال، أومأت برأسها قائلةً في سرها: ما أكثر الندوات! وما أقل الحلول، دراسات، جلسات، بحوث، كلام في كلام، ولا يزال الأطفال يمسكون بتلابيب الشوارع، مادين أيديهم المتسخة الخشنة في وجوه المارة متسولين، أو فارضين عليك شراء بضاعتهم الرخيصة من مناديل ورقية وحلوى عند التقاطعات ومواقف السيارات.

توجهت إلى الرواق الجانبي حيث المصعد، الغرفة صامتة إلا من جلبة أكياس البلاستيك المنتفخة البطون المتناثرة والمتكدسة في طرف الغرفة بانتظار دورها في التوضيب داخل الحقائب

الطافحة، ابتسمت من ولع النساء الغريب في التسوق، ننفق ما في جيوبنا على لحظات سعادة وقتية ما تفتأ تزول حالما ندرك أن أكثر من نصف مشترياتنا لا حاجة لنا بها أو دون الطموح، معاهدات أنفسنا بعدم اقتراف الخطأ ذاته في المرة القادمة، لكننا نعاود الكرة تحت ذرائع ومبررات تستسيغها النفس ولا يملك العقل إلا الصمت الساخر منها.

تمددت على الفراش متحاشية النظر ناحية الكتاب الهامد على المنضدة لئلا يخزني قلبي ضيقاً، كأن حياتي بحاجة إلى توتر إضافي!... لا أفهم ماذا يجري! أمور غريبة تحدث معي منذ وصولي إلى أربيل، أناس غرباء يقابلونني بوجوه متجهمة متهمة ونظرات قاسية مزدرية! حقاً لا أفهم! تذكرت الآن أني لمحت ذلك الشاب يصوب نظراته من بعيد نحوي في المعرض، أهي صدفة أخرى أن ألتقيه في المعرض؟ ما أكثر الصدف هذه الفترة! بت أشك في ذلك، أضغط بيديّ على رأسي وألعن مرض كورونا الذي قرض من ذاكرتي كجرذ خبيث، آه لو أعرف سر نظراته الغاضبة مني، ولولا انشغالي بالبحث عن ذلك المؤلف لاستجمعت شجاعتي وسألته عن سبب ملاحقته لي!... واثقة أنه سيتذرع بالصدفة ليس

إلا، هذا إن لم يخشن الرد، حمداً لله أنك ما أقدمت على ذلك، لا يوحي بالثقة كذلك ردة فعله غير مضمونة العواقب... أوووووه ما شأني به الآن! ليذهب إلى الجحيم، مستديرة على جنبها كأنها تزيحه عن رأسها قائلة: لا أنقصك أنت الآخر.

بات صمت الغرفة بارداً موحشاً يفسح المجال لنسج خيوط الذكرى أو فتق تداعياتها... حطمتِ كل أحلامي، لست بأم أنت، لست بأم، لا قلب عندك، كيف هنت عليك؟ أخبريني كيف هان عليك ابنك؟! كيف استطاع لسانك قولها!! وأنت أدرى الناس بي! والأهم لماذا خدعتني؟! لماذا؟ أكرهك بطريقة غريبة، أكرهك كعدوة لدود، ولا أظن أن العدو قادر على فعل ما فعلته بابنك، لست بأم، لست بأم... رازعاً الباب خلفه بكل قوة وغضب طااااااااخ. كفكفت دموعها ونهضت متثاقلة من السرير، أمام المرآة رممت بطرف المنديل الورقي بقايا كحل ساح عند طرف العينين، وعقدت ربط حجابها هاربة إلى الأسفل.

تسللت مندسة بينهم وراء فضولها إلى الندوة المقامة محتلة أحد الكراسي الخلفية... سماع نفايات الكلام أفضل من الإنصات إلى صوتك المرهق عزيزتي... مصغية إلى النقاش الدائر بين امرأة

قد تجاوزت الخمسين وأثنين آخرين، ومن خلال مفردات المواضيع فهمت أن تلك المرأة صاحبة مؤسسة إنسانية تعنى بالأطفال المشردين وتقديم حياة كريمة لهم، لكن اسم المؤسسة "جاك للطفولة" استفز فضولي، لماذا هذا الاسم الأجنبي!... يا لَبؤس العرب وضعف ثقتهم بما يصنعون! من ماذا يشكو الاسم العربي، ألا يليق بهكذا مؤسسات؟! لاعنة روحي الانتقادية التي شتتت من تركيزي على حوار تلك المرأة ووعودها.. وكأنها تملك مفاتيح السعادة والرخاء لأولئك الأطفال، ما هذه الغبطة التي تعيشها؟... إخرسي ودعيني أسمع... ماذا تسمعين؟ ترهات وخطط على ورق ستكب في سلة المهملات حالما تنتهي الندوة... كم أنت متشائمة حقود؟... وأنت غبية كل همك تضييع وقتك بالتفاهات، وقبل الختام توجه أحدهم عارضاً على الحضور أي استفسار بودهم توجيهه إلى الدكتورة غادة صاحبة ومديرة مؤسسة جاك للطفولة، فتنبهت إلى يدي المرتفعة حين التفت الأنظار نحوي لسماع سؤالي أو مداخلتي... ما هذه الورطة؟ ماذا صنعت؟ تلكأت قليلاً وتراجع حماسي حين قدم نحوي ذلك الشخص بالمكرفون، لكني استجمعت رباطة جأشي وبصوت واثق طالته ربما نبرة تهكم خفيفة ابتسمت على إثرها السيدة: وكيف تحصون أعداد أولئك

الأطفال والكثير منهم غير موجود في سجلات النفوس؟ تقاطعات الشوارع والأرصفة الحارقة منزلهم، منوهة فيما إذا كان جاك أحد أولئك! تفاعل الجمهور ضاحكاً مع سؤالي الأخير الذي ندمت على طرحه بسبب تعابير وجهها التي انكمشت فجأة واعتلتها مسحة حزن شفيف تجلت في نبرة صوتها رغم ابتسامتها الوقورة التي أفرجت عن صفيّ أسنان كانا بمنأى عن صفار الزمن وتعرياته حين قالت للعيون الفضولية المحملقة فيها: جاك لم يكن طفلاً مشرداً، بل كان... طأطأت برأسها بشكل لا إرادي، ساد صمت مترقب للحظات بدت طويلة، رفعت عينيها نحو الفراغ، جمدت ملامحها، تشتت انتباهها، أظن أن مدير أعمالها نكزها بلطف عائداً بها من شرودها فأومأت بهزة خفيفة من رأسها كأنها تطرد شبح ذكرى وأردفت: تلك قصة أخرى سأرويها في الوقت المناسب، بالعة ريقها على غصة.

شعرت بالعار، كان سؤالاً عفوياً لم أقصد به أية إساءة أو تعكير مزاج تلك السيدة الأنيقة الحضور والحديث، ماذا جرى لي! كيف بدوت عدوانية قاسية! بردت أطرافي بفعل الخجل، فركت يديّ طلباً للدفء واستجماع شجاعتي التي تهاوت مقابل ابتسامتها الوادعة،عليّ الوقوف والخطو نحوها قبل مغادرتها القاعة، لم

أعرف ماذا أقول لها، أأعتذر عن غباء سؤالي أم أعرفها على نفسي؟... ومن تكونين يا هذه؟... لا أدري، لكن كيف أبدأ الحديث معها؟

- دكتورة...، سرني حضور ندوتك.
- أهلاً تشرفت بك.

صمت وهلة لا أنوي على قول شيء لكن كلماتي تسارعت قائلة: آسفة حقاً، ما كنت أنوي إزعاجك.

- لا عليك، ليس هناك من إزعاج.
- أرجو أن تعذري فضولي، فأنا روائية من البصرة.
- أهاااا روائية من البصرة**!** لي كل الشرف، ما اسم حضرتك؟**!**
- نادية الابرو.

تراجعت خطوة للخلف، عاضة على شفتها السفلى مقلصة عينيها من خلف نظارتها الشفافة المستطيلة، رف عرق صغير على جانب عينها، تمعنت في وجهي: تشرفنا، وتلاشت بين الرؤوس، لم أفهم ردة فعلها وتلك الكلمة اليتيمة التي خرجت منها على مضض... أصبحتِ حساسة أكثر من اللازم، ماذا تودين أن تقول لك أكثر من ذلك؟... لا شيء، لا شيء، لكن...... أوووه لن تفهميني فلماذا اشغل نفسي معك؟ نظرتها الأخيرة الغامضة،

عيناها المحملة بالأسئلة على شفا جرف فمها الذي أفتر عن ابتسامة أرقت مشاعري وزادت من فضولي، لا أعرف ما خلف تلك النظرات المريبة، ما الخطأ فيّ! لا ألبث كل يوم من سفرتي هذه أن أصادفها، هههههههه أهي لعنة كرونا أم لعنة أربيل؟! على كل حال هو يوم مزرٍ منذ صباحه الذي شقشق وأنا ألف حول نفسي عشرات الأسئلة عن ذلك المؤلف ليكتمل بتلك السيدة الغريبة التي انسحبت على عجالة كخيط دخان.

لست واثقة، أظن أني لمحته من نافذة البهو بوجهه المتجهم الكئيب بالقرب منها، أمممممم هناك أمر غير طبيعي، داعكة صدغها بروؤس أصابع مرتبكة... أمعقول هو مرة أخرى وأخرى!... كلا لا أظن، دعي عنك هذه الشكوك، أنتِ متعبة لم تنعمي بنوم مريح ليلة البارحة... لكنه هو، أنا واثقة من ذلك... أنت متعبة، ورأسك مثقل بالشكوك، فهيا اخلدي إلى النوم... صدقيني، كان جنبها قبل أن تستقل السيارة بصحبة مدير أعمالها... نامي الآن وكل شيء سيغدو بخير.

*** *** ***

بعد شعور الأمان الطويل الذي ثابرت مجتهدة لأكون جديرة به صدمت، بل صدمنا جميعاً حين أقبل والدي بوجه مغبر اللون حسير التعابير يحمل على ذراعيه مولوداً صغيراً ملفوفاً بقماط أبيض خيط بحب واعتناء مطرز الحواشي متجهاً به نحو جدتي على مرأى من أمي التي عقد لسانها المشهد وجحظت عيناها دهشة وشرراً وقبل أن تتفوه بكلمة قال أبي: هذا ولدك الذي انتظرته، أمه فارقت الحياة قبل ساعات، لكنك موجودة.

ضاع أثر تلك المرأة تماماً ولم تحفظه سوى خيوط التطريز على الأقمطة التي استبدلت هي الأخرى بأقمطة أخرى بيضاء سادة محايدة المشاعر والبصمات، الغريب في الأمر أننا لم نعرف

اسمها لليوم، وحتى أخونا شهاب ما عرف أماً غير أمي التي تفوقت على نفسها في أن تصبح أمه أكثر مما هي أمنا، أخيراً تحقق حلمها بالصبي، واكتحلت عيناها بهجة مع كنيتها الجديدة أم شهاب بعد انتهاء صلاحية كنية أم نادية التي لشدما حرصت أن أكون على قدر استحقاقها حين نافست الصبيان وتفوقت عليهم، حين ألقيت بالدمى جانباً لأنغمس في عالم القراءة والأدب الذي لم يضعف رغبة أبي في الولد، الحلم الشرقي العتيد.

هنأني الجميع مستبشراً مباركاً ولادة ابني أشرف، وكأنه أعظم إنجازات حياتي أو الولد الذي قدم بعد سرب بنات، لا أخفيكم كم ضايقني ذلك لاسيما مداخلات بعضهم وظنونهم بأن رحمي لن يسع لذكر تماماً كأمي، وكنت قد أعددت اسماً لأنثى في رضا تام بحمل كنية أم البنات التي غالباً ما حملت أمي على البكاء والجزع من نصيبها متهمة إياي في بعض المناسبات بجر البنات خلفي من رحمها، حتى جاء الولد نازعاً عنها تلك الكنية المشؤومة بعدما أيقنت تماماً بأن الأم من تربي لا من تنجب، فتربع شهاب وسط قلبها واكتفينا نحن بالأركان في قبول عفوي لا تشوبه الغيرة، إلا من حساسية مزمنة لازمتني بعدما حل اسمه مكان اسمي على

لسان الكثيرين وباتت أم نادية وأبو نادية من ذكريات ماض بعيد لا يلفظه سوى بعضهم كزلة لسان.

ما سمحت لتلك الزلة أن تستأثر بلسان من حولي فتجرد ابنتي من أحقيتها في كنية أبويها رغم إصرار بعضهم على مناداتي بأم أشرف تماشياً مع الأعراف والتقاليد ورغم كل شيء نشأت ابنتي بمشاعر غيرة من شقيقها مرددة على أنه ابني العزيز في إشارة إلى تفضيله عليها.

تمنيت لو أكون صديقتها المقربة، لكني لم أفلح ككثير من الأمهات، رغم محاولتي تلك، وددت كسر تلك القوالب الجامدة النمطية... فات الأوان على ذلك... ربما هو خطئي من البداية، لن ألومها، فالأمومة ليست بغريزة فقط بل عاطفة تحتاج لدعامات راسخة كثيرة للنفاذ إلى قلوب أولادنا، وللأسف ظننت أن حبي وخوفي عليهم كفيلاً بأمومة مثالية، يا الله كم كنت واهمة**!** وكم ابتعد عني أولادي، جدران عالية تفصلنا تمنعني من الوصول إلى قلوبهم ومنازل ثقتهم، لقد خسرت، خسرتكما ببساطة... لم تنزعي عنك قناع الأمومة بكل فرضياته التقليدية وإملاءاته التي نشأت

عليها وعانيت منها دون أن تتعلمي الدرس وتكوني الصديقة لهم قبل الأم!

مأساة كبيرة أن يشب ويكبر أولادك بعيداً عنك، تستدرجهم الغربة بمغرياتها الزائفة والوعود، باتت لي حفيدة بالكاد عرفت اسمها داليا، تحمل عيني صغيرتي الجميلتين ولونهما المميز، تمزقني فكرة قضاء ما تبقى من عمري بعيدة مجهولة ومنبوذة، لا يعرفني أحفادي، وإن استدلوا عليّ من الصور، فكيف لي أن أتحسس دفء أيديهم الصغيرة تنام في باطن يدي، وجوههم الصافية الوادعة، ابتساماتهم الملائكية، خطواتهم الأولى، حقيبة المدرسة وكراس صف الأول الابتدائي المزدحم بالحروف، أمزجتهم المرتبكة بين تناول برگر الدجاج أم اللحم، تندرهم على جدتهم وبحثها المتكرر عن نظارتها وسجائر جدهم المخبأة في ركن الحديقة عني!؟ حتماً سيفوتني الكثير إن لم تعدلي عن موقفك وتتخلي عن قسوة ليست بطبعك ولا أستحقها منك بنيتي... أنتم من دفعها للرحيل... لا تكوني ظالمة، أحذرك من ذلك، كيف نحن؟!...

عقلي يضج بالأفكار المتضاربة المتلاحقة، ما من شيء تركن إليه نفسي، أحاسيس غريبة تلاحقني ولا أفهم لها تفسيراً، مصادفات وأناس أخال نفسي أعرفهم لكني لم ألتقِ بهم بتاتاً، خلت أن هذه السفرة ستخلصني من أعراض ومخلفات كرونا لكن على ما يبدو أن الأمور تتفاقم مع ذاكرة مشوشة ومزاج متقلب متناقض، لا شيء أفعله سوى التفكير والتفكير ينبض في رأسي كدوامات تتسع منتفخة كوحش يستلب جاهداً روحي، لن يفهمني أحد، ولا أجد الشجاعة في الإشارة أو التلميح إلى تلك الظلمة المرعبة التي تقطنني، في السابق كانت الكتابة ترياقاً اختفيت خلف ظلال حروفها، لكن الآن وقد نضب قلمي ومن قبله روحي لا أجد مكاناً يسعني في هذا العالم، أوووه يبدو أني أخطأت بالقدوم إلى هنا، لست بالمزاج المناسب لمفاجأت السفر أو مناكفاته، وتمددت على سريرها بنية أخذ قيلولة صغيرة من ساعات تجتر الزمن بلا توقف أو انتهاء.

قدمت الشقيقتان متعبتين تحملان بضعة أكياس أخذت مكانها إلى جانب مثيلاتها في ركن الغرفة المزدحم بها، مستلقية كل منهما على سريرها طلباً لقسط من الراحة لكن فضول إحداهما لم يلجم

لسانها رغم التعب قائلة: نادية إحزري من شاهدنا في فاملي مول؟!

- أرجوك لست جيدة في تخمين هذه الأمور، هيا قولي ما عندك.
- لن تصدقي مدى دهشتنا، كان جالساً بالقرب من تلك الممرضة الشابة الجميلة!
- من تقصدين؟! عاضة على طرف شفتها السفلى، واثقة من هويته، لكنها تأبى أن يكون هو.

- نعم هو... الشاب المتجهم ذاته، فعلاً صدفة غريبة أن نلتقيه ثانية وقد بانت عليه علامات الضيق هو الآخر، لا أدري أين رأيته! حتماً أنا قد صادفته في البصرة، ليس بالغريب عليّ، لكن أين؟ لا أذكر للأسف.
- تماماً أنا مثلك، يتملكني إحساس غريب في معرفة سابقة تربطني به! لكن السؤال الأهم ماذا كانت تصنع تلك الجميلة برفقته؟! قسماً بالله لا يستحق أظفرها، لكن الدنيا حظوظ ههههههه.

- نعم حظوظ، الدنيا حظوظ، وتراجعت ابتسامتها الفاترة إلى أقصى وجهها فاسحة لظلال الخيبة بالتخييم سريعاً لولا استطالة الحديث حول الممرضة وجمالها الباهر حتى قالت إحداهما معترضة: بالمناسبة، هو أيضاً وسيم لولا تجهمه وقسوة تعابيره، صدقاني ملامحه جذابة متناسقة مع وجهه، فسخرتا منها ضاحكتين بينما هي منهمكة في الدفاع عن ذوقها وتبريره مستفيضة في ذكر تفاصيل غابت عنهما مما أثار سخريتهما مبديتين خشيتهما من وقوع شقيقتهم في حبه، فقاطعتهما: لا تخشيا عليّ فلديه حبيبة، لا أظنهما مجرد صديقين، نظراتهما كانت توحي بأكثر من ذلك، يسهم بنظره نحوها، فتخفض رأسها مبتسمة، ودبيب شرارة تتصاعد كلما تلامست أيديهما دون قصد وهما يأكلان، رفع الشوكة إلى فمها بقطعة لحم أكلت جزءً منها وأكمل هو الباقي منشرحاً، هذا حب أستطيع المراهنة على ذلك.
- إذن راحت عليك يا مسكينة هههههه.

عادت الغرفة إلى صمتها المطبق ثانية بعد أن أخلدت شقيقتاي إلا من ضجيج أفكار تنازعني ولا تأبى الهجوع، ما لي أنا وذلك المشؤوم؟ يا الله لماذا يزاحم أفكاري؟ ما شأني إن كانت تلك الجميلة حبيبته أم صديقته؟ ما هذا الفضول الغريب؟! ظهوره كل

حين بات صدفة غير معقولة!... لكن لماذا أفكر به على هذا النحو؟!

تفرك رأسها، تستحلف ذاكرتها بإفشاء إشارة أو تلميح تستدل به على ذلك المخلوق المعتم، ودهشتها من وله تلك الجميلة به! مؤمنة تماما، أن مرآة الحب عمياء... لا أفهم كيف ألبها علينا ماسخاً ابتسامتها الوادعة وترحابها بنا إلى برود وفتور مقصود! ابن اللعينة... أمه امرأة بسيطة واضحة لولا نظرات العتب المغلفة بظلال لوم أثقل على قلبي ولم أفلح في تفسيرها مثلما فشلت في تفسير أمور كثيرة تحدث لي هنا في أربيل، ما كان عليّ الاصغاء لهما والقدوم.

***　　　***　　　***

كنت أظن أن السفر كفيل بضماد بعض من جراح الروح ووضع الحد لمهاترات العقل، لكني ها أنا ذا أقلب في الماضي وأخوض فيه كل حين في إرادة مستفيضة على اجترار الألم واستدعاء صور وشهود وملابسات باتت جلية الآن، حينها لم أحمل كلام تلك المرأة على محمل الجد مستدركة بصغر عمر أشرف وعدم كفاءته في تحمل المسؤولية، ولا يزال أمامه طريق دراسي طويل ومستقبل مجهول لا مكان فيه لابنتها المصون، تطاير الشرر من عينيها حسبما تخيلت، وتحشرج صوتها وتقهقر، قائلة: ابن عمها أولى بها ما دام هذا كلامك!

- ليس بكلامي، بل هو واقع الحال، واثقة أن ابن عمها أولى بها من غيره، بنبرة الفتور والهدوء واجهت سخط صوتها حين أغلقت الهاتف.

لم أدرك فضاعة فعلتي حتى رأيته متكوماً خائر القوى يجهش في بكاء مر كأم ثكلى، معاتباً ومغاضباً على استهانتي به وعدم تقديري لمشاعره تجاه حبيبته التي تزوجت بابن عمها مغادرة البلد تاركة ولدي يتقلب على جمره... أنت لا هي من هان عليه... ليتني كنت أكثر وعياً وتفهماً لمشاعره... هي الغيرة من أعمت بصيرتك... عن أي غيرة تتحدثين؟ هي من سرقته قبل الأوان... بغضتُ نبرة صوتها المتحدية وتهديدها المبطن وكأن ابنتها ملكة جمال... لكن لأجلها ترك البيت مغادراً... لقد سرقته بنت الكلب، سرقته، بعضهم لمحه يعزف ضمن إحدى الفرق الموسيقية،، لا أدري لِمَ لم تخبرنا بكل الحقيقيةا تلك المتبجحة البلاستيكية، وآخرون يؤكدون أنهم شاهدوه يتسكع بملابس عتيقة رثة مطلقاً شعره ولحيته كمتشرد، أوووووف أوووف ليتني أعرف أين أخطأت؟ وهل تستحق ما يصنع بنفسه لأجلها؟! زافرة عن صدرها حسرة كبيرة.

أهمل دراسته متغيباً عن كليته فتم فصله دون إن يبدي أي إحساس بالندم متماهياً في عقابي، وتسديد ضربات الخذلان لي واحدة تلو الأخرى، فترك البيت فترات طويلة متسكعاً مع رفقاء سوء ضللوا طبيعته الطيبة الخجول عن مسارها إلى حياة الليل وما يعتريها من تفاصيل معتمة داكنة لم نتخيل تورطه فيها، وأننا بالكاد خلصناه من سموم أولئك الرفقاء مقابل دية من المال اجتهدنا في جمعها لقمة سائغة إلى أفواههم العفنة... فتاة تنقط فحشاً، كحلها يقظُ على عينين متأهبتين ماكرتين شرستين، شعرها الأشقر الرخيص تتزاحم خصلاته خارجة من وراء حجاب مارق، ناهيك عن تلك الشامة التي تربعت راحة خدها المغبر في سفور فاضح عن بيئة تلك الفتاة التي جاءت تتقدمها بطن يضيق عليها ثوب رديء التصميم، وامرأة خمسينية لا تقل عنها ضعة ووقاحة حين أشارت بنبرة سوقية مرتفعة إلى بطن ابنتها: هذا ابنكم وعليكم كل نفقاته ومصاريفه. لم يدرك عقلي ما تناهى إلى سمعي حتى كررت بلهجة فجة: ابنكم ولازم تعترفون بيه وتنفقون عليه وعلى أمه إلي غرر بيها ولدكم.

تملكتنا الدهشة لا بل صعقتنا، كيف لولدي أن يقع في هكذا فعل ومع هذه الأشكال؟! لم أصدق أن ذلك الخجول المنطوي قادر على خداع فتاة مثلها، فقصت علينا صدفة لقائها به وتعرفها عليه، ومن زلات كلامها وتضارب حديثها وتناقضاته أدركنا أن أشرف لم يقربها وبالكاد التقاها مرة في ليلة سكر برفقة أحد أصحاب السوء، لكننا سددنا الفاتورة وانتشلناه من نسب أبوة زائف، وانتهت القصة المفبركة بتشابه في الأسماء أقصد الآباء بعد نيلهم مرادهم، لم يوافق المحامي على غلق باب القضية بهذا الشكل المتخاذل على حد وصفه، رغم قوة موقفنا الذي حتماً سيأكده فحص DNA مفنداً بنوة كتب لها شضف العيش والتشظي قبل أن تخط قدمها خارج رحم تعدد بذاره واختلطت بذوره.

كان صامتاً، لم يدافع عن نفسه أو يرد اتهامات تلك الفتاة السيئة بحقه، فقد رغبته في العيش، فتباطأت خطواته حبيسة غرفة تخمر هواءها وثقل، لا باب يرد ولا نافذة تفتح، معتزلاً عنا مخاصماً بالأخص أنا التي لم أقم اعتباراً لمشاعره مبددة فرصته الذهبية في حياة سعيدة مع حبيبته التي أوغرت قلبه عليّ حتى هجر البيت إلى حيث نجهل، وكأن التشرد والغربة دواء لخيبات الأمل وصدمات

الحب!... أنت من بعثه إلى تلك الهوة، عنادك أفضى بك لهذه النتيجة المؤلمة، هجرك ولداك، وهذا الأخير حالما يقوى جناحاه سيحلق هو الآخر بعيداً عن سمائك، وغلال غيومك... لا تكوني قاسية أرجوك... هي الحقيقة، كلاهما هرب عنك وما أظن أن طريق عودتهما سالك كما تأملين..

ليس بنيتي الإنصات إلى روحي و مراقبة مدها وجزرها، فقررت النزول والسير إلى القلعة حيث الناس من هويات وأماكن مختلفة يجمعها حب السفر والأجواء الحميمية، فارتديت بنطال جينز مريح يعلوه قميص واسع فضفاض يتيح حرية لا تكفلها الكثير من ملابس النساء مع حذاء رياضة بعيداً عن كل الشكليات والمظهر الرسمي الذي أفرضه على نفسي في أوقات عديدة.

حدقت في ساعة هاتفي النقال، استغرقت ثلث ساعة في السير حتى بلغت مسطبة ترتكن إلى سياج من شجيرات متراصة مشذبة، فالتقطت أنفاسي جالسة أتوخى الراحة منصتة إلى صوت خرير الماء، وألوانه المتدرجة اللامعة في هبوطه من نافورة تتباهى كل حين بثوب كعروس في ليلة حنائها... أرقتني فكرة الجلوس أمام جمهور النساء مستعرضة فساتين مختلفة الألوان والتصاميم طلباً

في رضا لن أدركه مهما تحاملت على نفسي وأجهدتها في ذلك فقررت إعفاءها من مغبة عناء تلك الحفلة وإلغاءها من سلسلة طقوس الزواج واحتفاءاته... أشنف أذنيّ لما حولي، أرقب الوجوه وكيف نالت التجاعيد بعضها، تراجعت العيون وانكمشت، تهدل الأنف فوق فم غارت شفاهه وتعرجت عليه ابتسامة فقدت بريق أسنانها، وخدود خاوية استسلمت لقوى الجاذبية نازلة، أتمعن في ظهور احدودبت وتباطأ تقدمها فاقدة في الغالب حماسها في الوصول.

الجلوس ومراقبة العابرين أمرٌ يبعث على الراحة، يشغل النفس عن ذاتها ومكابدة خسائرها في حسرة وعتب دائم يفضي آخر الأمر إلى حزن ثقيل وأسئلة لا جواب لها سوى الشعور المقيت بالخذلان والتمادي في تعذيب أرواحنا كرد فعل لا شعوري على أخطاءنا أو ما نظنه أخطاء... لا تشغلي نفسك بهذه المهاترات اللغوية وتابعي المارة، جميعهم قصص حياة نادرة لن تتكرر... اقترب مني بائع الورد، طفل صغير يحمل بين قبضتيه الصغيرتين باقة ورد معطرة يانعة أشقى نفسه في حفظها عن أشعة الشمس تاركاً وجهه لها كضريبة وبديل، ابتسم وناولني وردة حمراء،

فمددت يدي نحو وردة صفراء، استللتها من باقته... ما لي أنا والورود الحمر؟ ابتعد راضياً يحمل في جيبه ورقة الخمسة الآف دينار بدلاً عن الثلاثة الآف كإكرامية نرضي بها ذواتنا قبل الآخر... قبلت وردته مترددة أمام زميلاتي البنات، جورية حمراء يانعة لا يزال شذى عطرها يعبق في ذاكرتي ولأصبح بعد ذلك مثار تندرهن بدندنة أغنية عمي يا بياع الورد، گلي الورد بيش؟ أحياناً أعاتب نفسي على سذاجتي وتسرعي في إخبار أمي هههههه، وإهدار فرصة أن أكون محبوبته التي يجلب لها الزهور رغم ندرتها وقصر فصل تفتحها، مشرعة في تخيل قصة حب طويلة تعترضها المحاضرات المكثفة والمعادلات الرياضية المعقدة فأثوب إلى الواقع.

أنوار النافورات تزداد سطوعاً كلما أرخى الليل سدوله، ونأت الشمس بعيداً خلف القلعة وقد غشاها الظلام إلا من مصابيح مسمرة على جدران صخرية عمرها مئات السنين، نسائم الهواء باتت منعشة فانعكس ذلك على الأسارير وعلا صخب الأغاني والدبكات الكردية بعد أن سرت عدوى الفرح فانتظموا في حلقة، النساء بملابسهن المزركشة الألوان الفلكلورية، والرجال بزيهم

الكردي المميز، وكل من حولهم يصفق ويتمايل طرباً، فانزلقت خطواتي نحوهم وسط الجموع في محاولة لالتقاط الفيروس، فايروس الفرح وليس كرونا.

لمحت غير واثقة فلاح حديقة بيتنا عبد الجبار مع تلك المرأة لكن دون الكرسي المدولب وصاحبه، أمعنت في النظر نحوهما مقلصة عينيّ كمحاولة للتأكد... نعم هو عبد الجبار بشحمه ولحمه، لكن ما صلة قرابته بتلك المرأة؟ وما الذي أتى به إلى أربيل؟ لم يذكر أمامي نيته بالسفر!... وقبل أن أتقدم نحوهما إلى الجانب الآخر من الحلقة اختفيا تماماً، فتشت عنهما بين الناس المنشغلة بالتصفيق دون جدوى، تلفت حولي على المساطب دون أثر... ربما شخص يشبهه، آه لو تخليت عن عنادك وارتديت النظارة... بالحرق ذاته في وجهه!؟... ليس من المعقول أن يكون هو! ولماذا مع هذه المرأة؟ لا أكاد أصدق هذه الصدف التي تجمعني بها في كل مرة!!...

طرق بابنا طلباً في المساعدة بالقليل من الطعام الذي يسد جوع بطنه المتضورة تحت دشداشة رثة مبقعة مقابل عمله في فلاحة الحديقة والاعتناء بها، بالطبع راقت الفكرة لنا رغم تحفظي في قدرته على ذلك بجسمه الهزيل تحت جلد متضرر تضاربت ألوانه حسب شدة الحرق الذي تعرض له ناهيك عن وجهه الذي يخفيه

بكوفية بالية بهت لونها وتماشى مع وجه نزحت بعض تعابيره عن موضعها قليلاً وتشوهت... أمعقول أن أخطئ به؟! أو يكون له شبيهٌ إلى هذا الحد؟! شبهاً لذلك الحرق البغيض الذي أكل نصف وجهه وجزء كبيراً من جسده كما أخبرني! وكيف خرج من تلك الحادثة المهولة ككرة من نار دحرجها الجيران على الأرض ببطانية سميكة لإطفائها قبل نقله إلى المستشفى التي أقام فيها لأكثر من ثلاثة شهور... هو لا غيره أنا واثقة، ولم أجن بعد حتى أتوهم ذلك، وأخذت تفتش عنهما ثانية بين الحشود وفجأة أظلم العالم، انطفأت المصابيح، سواد مبهم غشي عينيها.

***   ***   ***

تتسع الأفكار وتضطرب الهواجس مع قدوم الليل، أفتح عينيّ، لا أبصر شيئاً، دوار وصداع يثقل رأسي بالكاد أرفعه، لا أتبين ما حولي! ولا تصل يداي إلى عينيّ، ما الذي يجري؟ جسمي موثوق متراخ خدر لا يقوى على الحراك، نحول تام وتعب يغمرني، لكن ماذا فوق عيني؟ لماذا أنا معصوبة العينين؟! أين أنا؟ لا أتذكر شيئاً، آآه صداع صداع، رأسي، وغطت ثانية في نومها قبل معرفة الجواب، ولم تصحُ إلا قبيل الفجر، والظلام ما يلبث يجر ذيوله عن غرفة صغيرة شاحبة الملامح جرداء، لا شيء فيها يدلل على الألفة وكأنها أعدت على وجه السرعة بسرير خشبي قديم وكرسي نحيل يرتكن الطرف القريب من الباب الحديدي المنزوع المقبض والطلاء كحارس، سقف منخفض تتوسطه مروحة متهالكة تئن

دائرة في ركود فراغ رطب، وعلى البلاط آثار أقدام أثاث سلب من مكانه دونما تعويض بغيره، ثلاثة أمتار في أربعة تقريباً هي أبعاد تلك الغرفة التي يعلو ذراعها الأطول نافذة مستعرضة ضيقة بزجاج مظلل كركمي اللون يثير في النفس سؤالاً عما كان يفكر به صاحب النافذة حين اختار لها هذا اللون وقد غشاه الغبار ورمى العنكبوت بخيوطه أحد جوانبها.

أتلمس نوراً خفيفاً يتسلل إليّ عبر عصابة العين، وبصفحة وجهي أشعر بخشونة الوسادة، أين أنا؟ رأسي لا يزال ثقيلاً لكني أستطيع تذكر اللحظات الأخيرة... يد قوية تطبق على كتفي وأخرى سريعة على وجهي، ولا شيء بعدها، عصرت ذاكرتها طلباً بالمزيد... للعتمة رائحة كحولية غريبة علقت على أنفي، وطعم مر في آخر لساني، تمكنت من النهوض بصعوبة بعد الاتكاء على ساعدها والجلوس على السرير بيدين وقدمين موثوقين... بات الأمر حقيقياً، لست في حلم كما اعتقدت، ليس بحلم كل ما أنا فيه! بدأ الخوف والغضب يتصاعد في رأسها... أمن المعقول أن أحدهم قد اختطفني؟! أأنا رهينة؟! لكن لماذا؟! وهنا في أربيل تحديداً حيث لا أعرف أحداً ولا يعرفني أحد!

مستذكرة حلمها وذاك الصوت الناهض من الظلمة "في أربيل سيتغير مجرى حياتك" هل هذا تحديداً ما نبهني له الحلم؟! فتقوقعت على نفسها مضطربة وأسئلة كثيرة تحط تباعاً على رأسها لكن صوت زقزقة عصافير بطنها أعلى من أي سؤال الآن.

واصلت جلوسها المتوتر فترة من الوقت، فوهنت أطرافها وانكمش عقلها حتى تباطأت أسئلته، لتستلقي ثانية على فراشها، صمت رهيب يلقي في نفسها الجزع والخوف، هوة عميقة تجرني نحوها كذرة غبار طافية في فراغ شاسع رهيب، أهو الموت؟ هل أنا ميتة! أهز جسدي المتعب، أحرك قدمي ويدي لأتأكد أنني لا أزال حية، نعم أنا حية، وهذا ليس بكابوس، لكن أين أنا؟! ماذا حدث؟! ليتني أذكر تلك اللحظة الفاصلة، لكن ذاكرتي لا تجود سوى بتذكر العتمة المفاجئة برائحتها النفاذة.

كنت أتقصى السير خلف عبد الجبار الذي اختفى فجأة مع تلك المرأة! أكاد أفقد عقلي، أمور عديدة في غاية الغرابة تحدث معي منذ قدومي إلى هنا، وعادت تهز رأسها علها تستيقظ من كابوس ثقيل، لكنها باتت تدرك أن هذا الكابوس هو واقعها وحقيقة ما تعيشه الآن وهي مسجاة على فراش متغضن صلب تفوح منه

رائحة عفونة قديمة تشتد كلما لامسه أنفها... لا بد أن ما يحدث لي سوء فهم خالص وحتماً سيأتي أحدهم معتذراً، لكني لن أرضى بسهولة على هذه المعاملة ولو كنت غير المقصودة، سأرهقهم بشكواي وتذمري مهما يبدون من أسف... هههههههه هل أنت مخبولة! من ذاك الذي يعتذر منك؟ الأجدر بك أن تفكري في الخلاص من هذا المأزق... متقوقعة على ذاتها تشكو البرد في حزيران.

للظلمة أقدام وحتى أيادي تواصل دبيبها البطيء نحوي، تغزو أطرافي، يسري سوادها في عروقي المتصلبة كدبابيس وأبر، يتملكني الخوف شاداً بي إلى متاهاته مستحكماً بخيالي وما ينز عنه من وحوش العتمة وجرذان تتسابق بأقدامها الدبقة الموحلة إلى قضم أصابعي أو ديدان كبيرة تمتص دمي بفمها المسنن الكبير، تتقدم نحوي في أسراب متتالية لا يوقف مدها سوى عقلي الذي انخرط إلى تلك الرؤى والخيالات الدفينة في سراديب الطفولة البعيدة، برد يقض مضجعي... بل مخاوفك، تحكمي بنفسك ولا تفلتي عقالها وإلا سيغشى عليك، أمعقول أن مخاوف راغب الطفل هي صدى مخاوفك أنت!... بالله عليك أهذا وقت السخرية، ما

راغب سوى بطل لإحدى رواياتي... المسكين شوهت ذكريات طفولته بأشباح الظلمة... أأنت مجنونة؟ راغب بطل ورقي ليس له من وجود في عالمنا... عانى من التبول اللاإرادي فترة طويلة وأثره الشديد على نفسه... ما بك، ألا تفهمين أن ليس وجود لراغب سوى على صفحات الورق؟! تتحدثين عنه كأنه حقيقة!... أظنه السرداب ذاته بضوئه الشحيح المنسل من عتبة باب حديدي صدئ... حتماً أصبحت مجنونة، الظلمة أخذت بعقلك. انزوت على نفسها مرتعشة مقرفصة كجنين في عتمة رحم.

فاقت خيالاتها وصور أشباحها إحساسها بالجوع، فتقوقعت متداريهُ خائفة من المصير الذي ينتظرها أو بالأحرى من الظلمة التي تشبعت بها حد الإنهاك، مصيخة السمع ولا شيء سوى صوت الصراصر كفرقة موسيقية يتناوب أعضاؤها العزف بالآت وطبقات صوتية مختلفة، شاعرة بملمس أقدامها الإبري المنفر على جسدها أو هكذا خيل لها فتلوت على نفسها وتقلبت بقصد طردها حتى باغتها النعاس مستسلمة له كحل لا تملك غيره، مسترسلة في حلم تعقدت أحداثة وتغيرت أشكال شخوصه وتداخلت إلا ذلك الوجه الإرجواني المزرق الذي لازم حلمها كل الوقت

بشعلة النار الممسكة به وصراخه المستغيث جارياً خلفها حتى استفاقت من حلمها منهكة خائفة تتلفت حولها مستذكرة ما قصه عليها عبد الجبار ذات مرة: يا سيدتي لقد نجوت بأعجوبة من موت محقق! كيف أصف لك تلك الآلام الشديدة التي تباغتني ما أن يجن الليل متغشية بستار الظلمة قاسية رهيبة لا ينفع معها حقن ولا مسكنات وثلثا جسدي محروق يرشح سوائله، ولن أحدثك عن الحمام الصباحي المهلك جالساً في البانيو منقوعاً بالماء مع الضمادات التي تذوي لتحل غيرها، إنه العذاب الأقسى والأكثر إيلاماً، وكم من مرة تمنيت الموت قبل أن يزحف الصباح نحوي وألمح في عيني المضمد نظرته الآمرة لي بالترجل من سرير تلطخت شراشفه بشتى درجات ألوان اليود والمطهرات الأخرى، في غرفة كبيرة عارية الأرض إلا من ستة أسرة، ثلاثة في كل صوب، ما تلبث أن تشغل حتى تفرغ من أصحابها بعد فترة بالرحيل مع عزرائيل أو بصحبة ذويهم، فلا عزرائيل رضي أن يقلني معه ولا أهل لي أمضي إليهم، فمكثت في المستشفى حتى التأمت الحروق على جلد منكمش، وبت خير عون للمرضى الجدد بحكم تجربتي وخبرتي، مثلما أصبحت ملماً بقراءة تعابير وجوه الأطباء في تشخيص الحالات وإمكانية نجاتها أو حتفها، ولا يخلو

الأمر من مفاجأت عزرائيل وقراراته التعسفية في اصطحاب مرضى بحروق بسيطة تماثلت إلى الشفاء لولا مهاجمة ما يطلقون عليه بجرثومة الدم.

زاول عبد الجبار عمله في الحديقة مكتسباً مع الوقت تعاطف وصحبة أولادها الذين تحاشوه أول الأمر بسبب شكله المشوه لكنهم في النهاية وجدوا فيه العم الكبير أو الجد الذي يأخذ بيدهم ويساعدهم بحنو: سيدتي عنبر الحروق هو المكان الأكثر فزعاً للنفس، لكنه كان الملاذ الآمن لي في اتقاء نظرات الناس المشفقة أو المتوجسة النافرة.

هو عبد الجبار لا سواه من لمحته عند نافورة القلعة مع تلك السيدة، آه لو كنت برفقته لما حصل لي هذا، لا أفهم ما المدعاة من اختطافي ورميي المهين في قعر الظلمة! لست ثرية ولا من السياسيين أو أصحاب النفوذ الذين تستهدفهم مطامع المجرمين! لا أدري إذا ما بلغت شقيقتاي الشرطة عن غيابي؟ أي عطلة استجمام هذه وسوء الطالع يلاحقني؟!

لم يخبرني مرة عن أهله وذويه أو اسم عشيرته في رغبة جلية على عدم البوح عنهم رغم سرده لبعض التفاصيل من حياته لكنه بالمجمل ظل صامتاً تلوح من عينيه نظرة غريبة وابتسامة ترتسم على وجه ثلثه بنفسجي اللون متغضن وشفتين تبقيان مطبقتين على أسنان قلما تكشف عن نفسها في ستر شارب كث إبيضَ شعره ملتحمٌ بلحية خف بعضها بسبب الحرق، أحياناً تسقط عليه نظراتي دونما قصد وهو يشذب الزرع مشمراً عن ساعدين وساقين طالتها النار بقسوة مخلفة عرجاً خفيفاً في إحدى قدميه وتيبس وشد في يديه داوم على دهنه بزيت الزيتون كما اقترحت عليه فحقق ذلك نتيجة مرضية إلى حد ما تكفل له تحريك أصابع يديه بيسر أكثر، وكم من مرة جال في خيالي منظره ككرة نار متدحرجة لائذة بالفرار، أي عذاب؟! وأي ألم؟! مسكين، لا أحبذ شعور الشفقة عليه مثلما ينأى هو الآخر بنفسه عنه مصراً على العمل بعزم لأجل لقمة عيشه، واعتياد الجميع على تواجده شبه اليومي في باحة البيت مكرساً جهده ووقته للحديقة، الأمر الذي تطلب مكوثه في غرفة المنزل الخارجية وبذلك أمسى الحارس والبستاني، ناهيك عن أعمال منزلية يقوم بها دون طلب كنوع من الترفيه عن نفسه وملء فراغ الوقت.

لا أعلم كم استغرقت في النوم أو كم مضى من الوقت عليّ هنا؟! أخذ الجوع والعطش يدركني ثانية متجاوزاً شعوري بالخشية من المجهول حيث لا صوت، هدوء سميك قاتل، إلا من صرير هذا السرير، أصبحت كمن يعيش خارج حدود الزمان والمكان معلقة في اللاشيء، كفقاعة خفيفة لا وزن لها أو حجم خارجة عن ملابسات قانون الجاذبية، أهو الموت ما أنا فيه؟! أهو الموت؟!

بعد وقت من التأقلم على عصابة العين المرتخية قليلاً والأطراف الموثوقة، استسلمت روحي إلى سكينة غريبة لم آلفها من قبل، الظلمة باتت باباً مشرعاً إلى النور والصفاء الذهني، لا أشعر بجسدي، لولا قرص الجوع في بطني، ولربما هو الدليل الوحيد على بقائي حية، فليس للموتى حق في جوع أو عطش... من يدري علهم كذلك... رجاء لا تبدئي بهذيانك ولا تقاطعي ما أنا مستغرقة فيه... كفِ عن الفلسفة وهذا الجنون، لقد خطفت لسبب مجهول مثلما هو مصيرك... ليكن لم أعد آبهة، فللتو لمست روحي في ثوان خاطفة معدودة معنى مختلفاً وشعوراً لم أدركه يوماً في حياتي، ولا تسعفني الكلمات على وصفه، إحساساً بهياً بهيجاً يتخللني، يبعث فيّ سكينة وطمأنينة من عالم آخر فلا يعود

عقلي مشغولاً بغير هذا الهدوء، وكأن يد الله مرت على رأسي... بل هو الجنون أطبق على رأسك!... للحظات شعرت أني خارج نفسي، ناظرة إليها من فوق، مشفقة على ما تكابده من هواجس أرضية ليست بذات قيمة أمام ذلك التسليم الروحي الآسر، للحظات نزعتها عني، شعور لا يوصف، ذلك التجرد من جميع همومنا وأدراننا، مشاكلنا وعقدنا النفسية، أن تكون أنت وحدك دون نفسك المنغصة الكئيبة، أن تمضي بلا خوف أو رهبة نحو اللاهدف، أن لا تكون مأزوماً بالأماني والطموحات، خفيفاً تمضي كذرة في كون فسيح، للحظات للحظات شعرت أنها الجنة... الجنة؟!... نعم الجنة لا غيرها حين نكسر أجسادنا الطينية الثقيلة محلقين خفافاً من كل شيء وبعيداً عن كل شيء في سلام سرمدي راسخ.

بدأ ضوء النهار المنسل من تحت الباب بالتضاؤل والخفوت حتى اختفى تماماً، فتسربت العتمة إلى روحي مستدرجة معها عشرات الذكريات السيئة والأليمة رغم تلك اللحظات الصوفية الفريدة، لا أفهم لماذا يرزح المرء في مواقفه السيئة لسطوة الذكريات المحبطة! أمعقول هذا؟! أنا سأفعل العكس، هناك شمعة في الطرف ترسل نورها الهادئ على مائدة طعام وقدح ماء

بمكعبات ثلج، أنتقي ما طاب لي مفضلة البدء بصحن شوربة الفطر اللذيذة والمقبلات، آكل دون حساب للسعرات، ملء بطني دون قلق من زيادة في الوزن حيث لا يوجد ميزان من الأصل هنا ههههه وسأشرب إستكان شاي مهيل فلا ليل أخشى أرقه ما دام النهار يصل إليّ شحيحاً مرتبكاً... طرت من الفرح حين أخبرتني طبيبة السونار بأني أحمل بنتاً، هيأت عشرات الأسماء حذفت كثيرها، خمنت شكلها، لون بشرتها وعينيها، لكنها جاءت أجمل مما توقعت، رقيقة ناعمة خشيت حملها أو تغيير ملابسها، أطرافها الوردية الناعمة الصغيرة لطالما أذهلتني، آه يا ابنتي كم أفتقدك؟ وكم هو قلبك قاسٍ؟ أيستحق وسام أن تتركي كل شيء لأجله؟! ما أفتأ ألعن تلك السفرة التي عرفتك به، ألف لعنة عليها، حينها لم ألحظ أمراً غريباً بينكما سوى موافقتي إياك حول مدى وسامته ودماثة خلقه وضحكنا معجبتين من طوله ورشاقته: لا أظنه عربياً.

- اسمه وسام.
- أقصد ربما هو مسيحي، ملامحه ليست عربية.
- أمي، هل بدأت روح الكاتب الفضولية لديك في التحري؟!
- ههههه لا يا ابنتي، بالطبع لا، لكن ملامحه نقيض اسمه العربي، لا بد أن يكون مسيحياً أو تركمانياً.

- ما شأننا به؟

وكان لك كل الشأن، كل الشأن يا ابنتي، ليتني عرفت متى غمزت السنارة، لكنت أبعدتك عن الشاطئ، طوال أيام السفرة اتسم سلوكه بالرسمية والتحفظ المطلوب بين صاحب العمل وزبائنه كونه يتولى إدارة شركة أبيه السياحية فرع تركيا، وخلال الأيام العشرة صدق ظني وتأكدت أنه فعلاً مسيحي من البصرة، غادرها أهله بعد عام ٢٠٠٣ إلى أربيل، ذكرياته عن البصرة تكاد تكون رؤى بعيدة طفولية لا معنى لها ولم نفلح في إنعاشها له بذكر أسماء أماكن ومناطق فيها، وكل ما يتذكره هو تلقين من أهله، لكنه أضاف أن لهم أقارب لا يزالون في البصرة، محاولاً تذكر اسم منطقتهم: طويس، طاووسة، طواسة، فساعدته قائلة: الطويسة.

- نعم، هي تلك الطويسة.

دعوته إلى زيارتنا على سبيل المجاملة حين تشاء له الفرصة بزيارة البصرة، فلبى الدعوة بعد ستة شهور تقريباً من سفرتنا مثيراً دهشتي، لم أدرك سبب قدومه لكني لمحت لمعة عينيه وتورد وجنتيه الورديتين أصلاً حين جئتِ إلى غرفة الجلوس لتحيته، كذلك لم يفتني احمرار رقبتك وأذنيك واهتمامك بزينتك، فخلتها

أموراً فطرية لدى الفتيات، بدا كل شيء طبيعياً حتى حديثكما المحمل بالتذمر من الأوضاع وشكوى الشباب الدائمة في صعوبة إيجاد العمل المناسب بعد تخرجهم، لا أنكر أنه يأخذ بلب محدثه وإعجابه لكياسته وهدوء طبعه، لكني لم أشك أبداً بوقوعك في حبه، عامان ونيف وسرك قابع في صدرك بعيداً عن أمك، ليتنا ما سافرنا، ليتنا ما التقيناه... هو القدر، فلا تبتئسي وكفي عن ذر الملح فوق جرح طري لا يبرأ، ليس بالوقت المناسب، أراك قد تخاذلت عن وعدك وعدت لاستدراج ذكرياتك الأليمة!

الصديق الوحيد الذي لم تحدثني عنه أو بالإحرى ذكرته بصورة مقتضبة لا تنم عن شيء ذي بال أو معزة خاصة، هل اتخذت من بقية زملائك وأصدقائك ستاراً عليه؟ كنت مدركة للعواقب، لكنك لم تتراجعي، ظننت أني الأقرب إليك، فيا لغبائي وخيبتي!: أنتِ من دللها وسايرها على أمور كثيرة غير مقبولة، حتى خرجت عن الطوق، لا أحد غيرك خلف ما نحن فيه، دلالك أفسدها تماماً، فتحملي العواقب. بات والدك يكرر هذه الجمل على مسامعي بنبرة تأنيب ولوم كل حين، بادئاً كنت أتشاجر معه رادة عليه اتهاماته، وبمضي الوقت تركته يرددها كنوع من الترويح عنه حتى سئم

منها، محتضناً إياي مجهشاً في البكاء ذات مرة، مفتقداً ابنته التي غادرت دون وداع مع ابنه الذي حملنا مسؤولية كل إخفاقاته، مساكين هم الأهل، حتماً ستدركين قيمتنا بعدما تكبر حفيدتي، وتنظر إلى العالم من زاوية منظارها المختلفة عنك تماماً.

الصمت يطبق على المكان في اتفاق بغيض مع العتمة، مر يوم كامل وأكثر وأنا لم أبرح مكاني موثوقة إلى السرير بتهمة لم أدركها بعد ومختطفون لم يحفلوا بغنيمتهم أو السؤال عنها بدواعي احتراف العمل... ربما أنت محاولتهم الأولى في هذا المضمار... ربما، لكن عليهم أن يكونوا أكثر احترافية في التأمين على حياتي... هههههه بالله عليك توقفي عن إضحاكي، لست في أحد أفلام هوليود، في العراق وارد جداً أن تموت الرهائن قبل تسليمها لذويها، هههههه لم يحترفوا هذا النوع من العمل بعد بشكل جيد... أرجوك كفي عن السخرية، لا أفهم لماذا تحاصرني الآن ذكرى تلك الليلة حيث لم نهنأ بنومنا، صراخه ملأ حواسنا فتحلقنا حول جدتي المنشغلة باسكاته على مرأى من أمي التي كانت واجمة الملامح متكدرة، وأبي منزو عند الطرف مع عبوسه لا يكاد نور الغرفة الشحيح يصل إليه وقد ترك جدتي وحدها في مواجهة

غضب أمي المحتدم والرضيع لا يزال يصرخ في حضنها باحثاً بفمه الوردي الصغير.

لم نعرف حينها ما صلة جدتي بذلك الرضيع الذي كف عنا صراخه بأخذ رضاعته والنوم مسترخياً بعيداً عن صوت جدتي وأبي وأمي في الغرفة المجاورة حيث تعلو وتتراجع تباعاً دون أن نفهم من ضجيج كلماتهم شيئاً حتى داهمنا النعاس لنستفيق في صباح اليوم التالي على صريخه ثانية، فأعطته شقيقتي رضاعته على وقع سخريتنا وتندرنا من ذلك البكاء، واعتراض جدتي بنبرة عطوف لكن حازمة: هذا أخوكم الصغير شهاب، سيكون السند والعون لكن حينما يكبر، التبس الأمر علينا وطفقنا ننظر بعيون بعضنا: أخونا؟ كيف؟ ومتى؟ وأمي لم تحمل به!... جاء من بطن الظلمة دون سابق إنذار لي أو تمهيد ههههه.

تحسست من وجوده معنا رغم حبي وانشدادي له كسائر شقيقاتي، جاء بعدما كنت قد شعرت بالطمأنينة أن لا أحد سينزع عني الصدارة والحظوة عند والديّ وجدتي، عشت فترة مقلقة مضطربة أصارع فيها نفسي التي تهفو إلى ملاطفته والعناية به وإلى عقلي الذي يرشح بالوساوس والريبة من تهديد هذا الصغير

لي، في تلك الفترة حسدت شقيقاتي على صدق وبراءة مشاعرهن نحوه، وسعادتهن المطلقة بقدوم شقيق طالما انتظرنه وخشيت أنا قدومه، وكم سعدت بقدوم شقيقتي الأخيرة التي استقبلتها أمي بالدموع والولولة، وتجهم ملامح جدتي التي راهنت بثقة مدعمة بالدراية والخبرة من شكل بطن أمي التي تحمل الولد هذه المرة لا مناص، ووجه أبي الصامت المستسلم.

درنا حولها بحركات طفولية مبتهجة لا تدرك معنى الوجوم الذي ساد أجواء البيت وخيبة أمل امرأة في لقم الأفواه التي راهنت على أن أرضها لا تطرح سوى الإناث، وإصرار جدتي على ذكر يحفظ نسل ابنها البكر وترغيبه بتغيير فراشه كما سمعتها مرة تنصحه بنبرة مستعطفة، فلم أفهم حينها لماذا عليه ذلك ما دام الفراش والسرير لا يشكوان من شيء حتى أن فضولي جرني إلى سؤال والدتي، فاشتد أوار الحرب الباردة وتعالت التصريحات والتهديدات من الطرفين ولم تطفئها الدموع، والمضحك في الأمر أني لم أستوعب لماذا تغيير الفراش يستدعي كل هذه الجلبة؟! يا للطفولة! براءة فطرية!... بل قولي سذاجة ههههههه...

نشأ شهاب ماداً جذوره في قلوبنا دون استثناء حيث ربته أمي كابن لها وما تلك المرأة سوى الرحم الذي حمله وغادر بعد انتفاء دوره، مثلما تناسى الناس أن شهاب من امرأة أخرى، كذلك فعل أبي حين أصدر بيان والدته باسم والدتي... فعلاً كانت قرباناً، طواها النسيان ولم يعرف بها شهاب نفسه.

*** *** ***

لا أعلم كم مضى عليّ في هذا المكان المنعزل الرطب، حيث استوى عندي الليل بالنهار فأدمنت النوم هرباً من التفكير بمصيري القادم، بعدما ألفت أشباح العتمة متمردة على مخاوفي واثقة بأن هذه الظروف السيئة ستتحسن، وأن الفرج قريب لا محالة رغم طبعي المتشكك وما يثيره في قلبي من فزع، والأمر الأهم أني استفقت هذا اليوم بلا عصابة عين، مفكوكة الوثاق وقربي قنينة ماء وطعام ازدردته على عجل قبل تبين مذاقه، الجوع كافر، وها قد تبينت صدق هذه العبارة، الجوع كافر وابن كلب أيضاً، سأتراجع عن الحمية التي ألزمت نفسي بها نكاية بالجوع، لكن متى دخلوا؟! لم أشعر بأحد... نومك ثقيل وسمعك

أثقل... لا أفهم لِمَ هذه السرية! متى يدلون بمطالبهم؟! عليهم اللعنة، لن أقضي باقي عمري في هذا المكان العفن، وتوجهت نحو الباب بساقين متصلبتين طارقة بكل قوتها دون جواب حتى بح صوتها واصطبغت يداها بلون الصدأ ورائحته المنفرة.

ليس هناك من صوت أسمعه أو حركة، وكأني في مكان منفي من طرف الأرض، أقصد تحت الأرض، ما هذا الحظ العاثر يا ربي؟! من بعد سجني بتهمة الكورونا أعود ثانية إلى السجن لكن هذه المرة بتهمة وذنب لا أعرفه، ليتهم يطالبون بالفدية... ما يعلمك؟ ربما اتصلوا، وجاري التفاوض بحق ثمن حريتك... أنحن حقاً أحرار؟ سؤال ما يبرح يثقل عقلي من زمن بعيد دون إجابة، لكني أكاد أجزم أن حياتنا بحد ذاتها وثاق نجبل به من البداية حتى النهاية، فعن أي حرية أتحدث وليس من معنى حقيقي للحرية سوى الموت؟... سيدتي ما من متسع هنا لهذه الفلسفة البليدة، كوني عاقلة حتى تخرجي من هذا الجحر بأقل الخسائر، ألا تظنين أن الفلسفة تحلية المترفين في أوقات فراغهم الطويلة وساعات كسلهم الممتدة.

هل أوثق في رواية أحداث السفرة هذه وما تخللها من مصادفات وأمور غريبة بضمنها اختطافي؟!... نفكر بالأمر عندما يحين إطلاق سراحك، وتستعيدي قدرتك على الكتابة... أووووه لا تذكريني، ماذا أكتب وقد سرق ذلك الكاتب المعتوه جميع ما ادخرته، أكاد أجن، كيف تمكن من ذلك؟ والمصيبة أن لا أحد سيصدقني... أنصحك بالتكتم على ذلك، فليس هناك من يسرق قصصاً لم تدون بعد... ما تفسيرك إذن؟!... لسنا بصدد التفسير، الأهم الآن أن تنفذي من هذه الورطة... برأيك ماذا يكون اسم الرواية؟!... أمممممم أكتبيها أولاً.

للصمت ضجيج قاتل يسري نحو الروح لا الأذن، فتتداخل الأصوات ومعها الذكريات في كوكتيل غريب يوقظ مكامن الجنون من مرقدها، فأصرخ بأعلى صوتي طلباً في نجدة قريبة أو اسعاف ينتشل ما تبقى من عقل يتأرجح بين أفياء الجنون والصمت... يا بني أوقف الطنطنة على عودك ودعنا نهنأ بنومنا، ليتني ما طاوعتك واشتريت هذا العود الأجوف الغبي، كان يتقبل هجومي وكل العيوب التي أكيلها عليه بابتسامة صغيرة تعلو طرف فمه الأنيق ولا يرضى بكلمة تمس كيان صديقه الخشبي متخلياً لأجله عن الجميع، مجالساً إياه ساعات طويلة مسترسلاً في عزف تصيب

بعض نوتاته وتفلت الأخرى من بين أصابع يده وأوتار مشدودة تنتظر بشوق بعضاً من الراحة، لا أذكر متى أبدى اهتمامه بهذه الآلة، ولماذا شجعته عليها! لأشكو بعدها من الضجيج، لكنه أبى إلا أن يكون ذلك العود طوع بنانه فعزف بانسياب ورشاقة أدهشت الجميع وألقمتنا الصمت المدهون بالفخر وباتت الموسيقى الصادحة من غرفته أمراً مسلماً به ككلية الفنون الجميلة التي التحق بها محققاً النجاح ومشاركاً في محافل دولية كانت البداية لانتشاره لولا...... أكملي لولا ماذا؟... كفي عن مناكداتك... نعم عزيزتي، لا ألومك، فالجميع يصم أذنه عن الحقيقة... لا تتحاذقي معي، كل ما في الأمر أنها لم تكن مناسبة له... ذلك رأيك لا رأيه... أنا أعرف مصلحته أكثر منه... يا لهذه الجملة المأزومة المتوارثة من جد لأب لابن، ظننتك أرجح عقلاً من ذلك، لكن للأسف خـا... أصمتي رجاءً لا تكملي، نلت منك كفايتي من اللوم والتقريع، وفريها لظروف أفضل من هذه، وليتك تفكرين في حل يخرجنا من هنا، ناهضة من سريرها الذي يصر إزاء أي حركة تصدر عنها، متجهة نحو الباب ثانية تدق وتنادي مستنكرة مرة ومتوسلة مرة أخرى حتى نال منها التعب والباب صامد لا يستجيب.

تتوالى الأيام وأفقد بوصلتها، فلا أعرف كم ليلة مكثت في قبوي القميء الذي زكمت رائحته أنفي وعلقت بملابسي، لكني متأكدة من مضي أسبوع وأكثر على وجودي، ترى هل عادت شقيقتاي إلى البصرة دوني؟! وهل بت اسماً في سجل المفقودين الكبير العتيق... وما أدراك أنه كبير وعتيق ههههه؟!... أتخيله هكذا، بربك أهذا سؤال؟! لو أنت بهذا الحرص والدقة كما تدعين لعرفت كم مضى علينا هنا؟ شاطرة فقط في تعقب كلماتي والتأكد من فترة صلاحيتها، نعم سجل عتيق كبير مثني الطرف رشحت صفحاته حبرها على بعض وعلا الغبار جلدتها الباهتة في ركنه المنسي، أيكفيك هذا أم أسترسل في وصفه؟!... كلا أرجوك يكفي هذا... أتظنين أنهم قد أوقفوا البحث عني بانتظار ظهور جثتي في مكان ما؟ فينعاني بعض أصدقائي على صفحته، وكل تسجيلات الإعجاب والحزن والتعليقات الطالبة لروحي بالرحمة والسلام والجنان الفسيحة، فجأة أصبح الإنسانة الملاك تآتياً مع "أذكروا محاسن موتاكم"، أعتمد على ذوقهم في انتقاء صورة جيدة لمنشور النعي يقبع على أقصى طرفها شريط أسود مائل، وسام الموت الذي يتقلده الجميع دون استثناء وبذل أي جهد، هو الوسام الوحيد

المضمون، حينها سيتصفح بعض أصدقاء الفيسبوك صفحتي للمرة الأخيرة ويقرأ بضع سطور من منشوراتي مغادراً دون رجعة.

واتتني فكرة الآن، على السيد مارك صاحب الفيسبوك إقامة مقبرة للصفحات المتوفى أصحابها تذهب تلقائياً إلى حتفها، نعم عليه التفكير بذلك بدل أن يضج عالمه الافتراضي بها، سأقترحها عليه إن واتتني فرصة العيش ثانية والنجاة من هذا القبو، أشعر بالخجل في الإلحاح على الله كي ينقذني من الموت هذه المرة أيضاً بعد أن خلصني من كرونا، لكن ما من منقذ سواك يا ربي.

لا أفهم كيف يأتون بالطعام والشراب دون أن أصحو على وقع أقدامهم، أمعقول أن في هذا المكان البائس كاميرا؟! وأخذت تتفحص السقف الحافي من كسائه والجدران الرطبة المنتفخة، لا شيء، لكني واثقة من وجودها في مكان ما، فانهالت بالشتائم والزعيق لتجهش في بكاء غزير على حياة هدرت وسنوات مرت سريعاً، كبر من بالأمس كانوا صغاراً واشتد عودهم بعيداً عنها، في البيت متسع كثير لكنه يضيق علينا، وصدى أصواتنا المبحوحة ترددها الجدران، غرف موصودة الأبواب على أشياء وذكريات هجرها أصحابها، مائدة وكراس ظلت شاغرة، أطباق وأقداح أقصيت عن وظيفتها، غرفة ضيوف فارهة لا تطأها قدم إلا ما

ندر، في أحيان عديدة تراودني فكرة الانتقال إلى بيت صغير لا يسع ذكريات الماضي لكن الدموع تخذلني وقلبي يمتعض منكمشاً من قسوتها متغاضياً عن فداحة عقوقهما بحقنا، منخرطة في البكاء مرة أخرى على أمل أن يلتئم شملهم ثانية ويعود الرافدان إلى نهرها.

تظاهرت في مرات عدة بالنوم كي تلمح من يدخل عليها خلسة بالطعام، لكنها أبداً لم توفق في ذلك، فأما يغالبها النعاس بعد فترة أو الملل من تجشم عناء الترقب والادعاء بالنوم الذي على ما يبدو كان مكشوفاً بالنسبة إليهم، مثلما بات التفتيش عن تلك الكاميرا السرية غير مجدٍ بعد مرور هذه الفترة في استسلام يائس من حتمية النهاية راجية الله الترفق بروحها... كانت الإصابة شديدة، أوشك على الموت لولا لطف الله، لاحظ بعض المارة بأن السائق كان يترصد عبور شهاب من الشارع منزوياً عند طرفه البعيد ليهجم عليه بدعسة بنزين قوية مندفعاً نحوه، وأن الحادث بلا شك كان مدبراً، تعددت الأقاويل والقصص لكن الشرطة لم تتوصل إلى أثر أو دليل له وحتى السيارة شوهدت في مكان ليس بالبعيد، استدل عليها مالكها الذي بلغ عن سرقتها منذ يوم أو يومين.

لم يفهم أي منا سر ذلك العداء لأخي، فقيدت الدعوى ضد مجهول سلب من أخي زوجته التي لم تقاوم البقاء معه بعد الحادث

أكثر من سنة طلباً لطفل عجزت فحولة شهاب عن إتيانه، ونية مكشوفة لإرساء عائلة جديدة هي الأم فيها لا الممرضة التي باتت تتابع وجبات الدواء ومواعيد أخذ الحقن ونوبات الغضب والكآبة التي تلاحق شهاب بعد مروره بسلسلة من العمليات الجراحية الدقيقة الصعبة والعلاج الفيزيائي المضني المطول، التي انتهت بشلل نصفي وكرسي مدولب أقعده عن ممارسة الحياة بصورة طبيعية واستئناف زواج جاء بعد قصة حب عامرة بالأشواق ذللت الصعوبات العديدة التي واجهتهما من اختلافات مذهبية واجتماعية لتتحطم مع أول اختبار حقيقي... لا تلقي اللوم عليها قبل أن تضعي نفسك مكانها... لا ألومها، لكني أعجب من الحب كيف تعلو وتيرته إلى سابع سماء بمحبيه ليخسف بهم في سابع أرض، متلاشياً كأنه لم يكن يوماً الترياق والبلسم... ببساطة ما عدت أثق بالحب... ليس الحب بل أنانية المحبين وجورهم على بعض من يخنق الحب ويرديه قتيلاً.

وقف الجميع ضدها بين معاتب لائم ومتهم إياها بالأنانية والجحود على ترك زوجها في أزمته وعدم التضحية بأمومتها لأجله، كنت الوحيدة التي دافعت عن موقفها أمام العائلة التي سنت أسنانها لتأكل في لحمها سائلة إياهم تحكيم عقولهم ورؤية الأمور

من جانبها هي، فالأمومة حق ليس من السهل التخلي عنه لأجل رجل ما كان ليصبر أو يتخلى عن أبوته لأجل امرأة، لم يقتنعوا بكلامي وشرعوا يكيلون لها أقسى الأوصاف وأذمها على مبدأ أطرق الحديد ساخناً حتى خرجت من فؤاد شهاب دون رجعة، مقاسياً وحده الألم وحياة جديدة حدودها كرسي مدولب حتى آخر عمره الذي سأل الله مراراً برده إليه للخلاص من أسر الكرسي، وأوجاع ليليلة مضنية يعجز الدواء أحياناً في تسكينها.

لمحتها ذات مرة بعد سنين من الحادث في أحد مراكز التسوق برفقة رجل وطفلين يجريان أمامهما، فغضضت بصري مشيحة نحو الجهة المعاكسة لكني تفاجأت بقدومها نحوي بوجه متهلل وحلة زاهية أنيقة، سألت عن الجميع باهتمام وحب وعن شهاب بشفقة فطمأنتها بتحسن صحته ومزاجه العام وبأنه مقبل على الزواج مرة ثانية من زميلة تعدى وجدها له حدود الكرسي والإنجاب، فامتقع لونها وتهدلت ملامحها وهي تتمنى له الخير والقبول منصرفة، لا أدري لماذا تخابثت معها كاذبة بشأن زواجه المزعوم؟! وكأني أنكرت عليها سعادتها مع عائلتها الجديدة رغم تحيزي السابق لقرارها!

أوشك خيط النهار العابر من عتبة الباب الصدئ والنافذة المستطيلة في أعلى الجدار على التلاشي والتراجع إلى فم العتمة الشره في إدراك عنيف لقدوم ليل آخر يرفع رصيد ما سبقه من ليال دكناء مشبعة بالتوتر والأفكار السوداوية باعثة الخوف في روحي من حتمية الموت والتعفن في قبو مهجور بعيد، فليت الشمس ساكنة لا تدور ولا القمر يراودها، ليتني فقط أعرف ماذا يريدون مني؟ هل تراهم يقايضون زوجي في قيمة الفدية؟ أرجو أن يتمكن من دفعها قبل أن أتعفن هنا.

***   ***   ***

قبل أن يشق النهار رداء ليله، وقبل تمكني من معرفة هوية الشخص الذي عصب عينيّ على عجل واقتادني ناهراً تكاسلي وسيري المتعثر معه، قبض بيد قوية صلبة على ذراعي، لم يجب على أسئلتي وفضول عباراتي، أتراها النهاية؟ لماذا أنت عجول هكذا! انتظر حتى يكملوا جمع ثمن الفدية، أرجوك لا تتعجل بقتلي، انتظرهم قليلاً، أو دعني أستعجلهم أنا، ومدت يدها في الفراغ بانتظار أن يناولها نقالها، فلم ينبس ببنت شفة واقتادها في طريق خرب نحو سيارة رفعت قدمها عالياً حتى وطأتها وقبل أن تعتدل في جلستها أوثق يديها من جديد، وأغلق فمها بخرقة بالية كادت تلفظ أمعاءها من قبح مذاقها، سارت السيارة بهدوء تحت جنح الليل حيث الشوارع هادئة خالية والمدينة لا تزال غارقة في نومها

قبل سماع تكبيرات آذان الفجر، النسيم العذب يداعب وجهي غير مكترث بدقات قلبي المتصاعدة هلعاً من دنو النهاية في أربيل، في أربيل سيتغير مجرى حياتك، بات الكابوس حقيقة، مضت نصف ساعة بحسب تقديري على خروجنا من ذلك المكان مع رائحته العالقة بي وقرصات نمله التي ما انفك جسدي متحسساً محمراً منها.

أخيراً توقفت السيارة، ليتني أستطيع الفرار والجري بعيداً، وكأن أحدهم أدرك أمنيتي، فأمسك بذراعي، لكنها يد أخرى أقل غلظة وقساوة، ارتقينا طريقاً صاعداً حتى نهايته، هل يفكر أولاد الكلب برميي من مكان عال؟! توقفت عن السير رامية بثقلها على الأرض، فانتزعها من زندها بقوة لم تستطع مقاومتها، لست بالسندريلا يا جبناء إياكم ودفعي من الأعلى ليبدو الأمر انتحاراً، لكن هل صعدنا إلى ارتفاع مناسب يضمن موتي سريعاً... وهل يفكر أولئك الأوغاد في موتك المكفول بالراحة والسرعة!... تباطأت قدماي عن الخطو ثانية متشبثة بالأرض، برودة سرت في عظامي فارتعشت من دنو النهاية، ليتني ودعت أحبتي بحرارة أكبر تليق بفراق أبدي، رجاءً إغفروا لي وعيشوا حياتكم التي

عقدها وجودي وربما غطرستي، لكن عذري الوحيد هو الأمومة التي ستفهمونها لاحقاً، ولدي الصغير لا تهمل دراستك، أدرك أن هذه الجملة هي الأكثر إزعاجاً بالنسبة لك، والحق شغفك فعقلك جميل طالما فخرت به وتنبأت لك بالأفضل، ولا تنس أن ترعى أباك وتنتبه إلى صحته التي أرهقها التدخين، لا تمنعه فقد كان بارعاً في استغفالي ولربما وجد في ذلك متعة وتشويقاً أكبر في لعبة قط وفأر دائمة، راقبه دون أن تشعره لئلا يواصل معك تلك اللعبة التي تستثيره على مواصلة التدخين مجارياً بأن كل ما هو ممنوع مرغوب.

استسلمت للنهاية بهدوء أعجز عن تفسيره، وها أنا أنتظر نفاد دقائقي الأخيرة معصوبة العينين تائهة... ما بالهم يتهامسون! قوايّ تخور وقدماي لا تقدران حملي، فلتنجزوا عملكم على أسرع وجه... وددت الصراخ بهم لكن الخرقة تقف حائلة بيني وبينهم، هل قتلي يحتم هذا البطء؟! وثلاثة رجال تتداخل أصواتهم الغليظة وتتشابك لكني واثقة أنهم ثلاثة أنذال لم يطيقوا صبراً على المساومة في ثمن حياتي... أممم وهل ما تبقى فيها يستحق الدفع؟!

يطول انتظاري، وأصواتهم ترتفع وتنخفض، ماذا أنا فاعلة؟ هل أرمي بنفسي من حافة هذا المكان موفرة عناء ذلك عليهم؟! يا لهم من أغبياء وغير متمرسين!... لكنك للأسف ستموتين على أيديهم... نعم للأسف، نهاية غير متوقعة... تصلح قصة... واثقة أن أحدهم سيتخذ من قتلي مادة قصصية مشوقة لا تحتاج إلى الكثير من البهارات.

تجرني يد أخرى ثالثة بحزم وشدة، أتشهد، يتلجلج لساني المقبوض بالفاتحة على روحي، يقتادني بضع خطوات إلى مصيري المحتوم، أقاومه، يتصلب ساقاي وترتعد فرائصي، إنها النهاية، الموت على مسافة خطوات، لماذا اختاروا لي تلك الميتة، أرجو أن يكون الارتفاع مناسباً لقتلي سريعاً بلا معاناة... غط رأسها في بركة الدم ونصف وجه لمع بياضه تحت مصباح الشارع المتلفع بقبعة، متكومة كخرقة، فردتا حذائها يتيمتان كل واحدة في جهة وقد تمزق جوربها الحريري الأسود الشفاف، خيط أحمر رفيع سال من بين شفتين كانتا يوماً قبلة الأنظار ومثار إعجاب المشاهدين، فخذاها المكشوفان من تنورة سوداء عجزت

عن ستر صاحبتها، تمر على ذاكرتي هذه الصور بسرعة البرق وأحمد الله أني أرتدي بنطال وقميص سميك لن يغريه الهواء.

من خلف تلك العصابة يتسرب إليّ ضوء الصباح هزيلاً فألمح قدميّ الرجل الذي يوثق قبضته على زندي لتصلني بعض أنفاسه الرطبة المحفوفة بدخان السجائر ولا أملك من أمري سوى استنشاقها مجبرة... أتخشين على رئتيك منه وأنت مقدمة على الموت بعد لحظات!... ينفر أنفي منها رغم معاشرتي لزوج لا يكف عنها مهما اعتل صدره منها، صوته الأجش المبحوح يلزمني الصمت رغم فمي المحشو بخرقة، أي أحمق هذا؟!

لماذا تطيلون عليّ الأمر يا سفلة؟ يمضي الوقت بطيئاً على عقارب نعسة متثائبة، فتستطيل الدقائق وتخور رباطة جأشي المدعاة، وتستفز روحي صرخة جوفاء عقيمة ككل النهايات وإن اختلفت أو تعددت، فعيشوا بسلام أحبتي، وانفضوا عن ذاكرتكم اسمي، امضوا خفافاً حيث تأخذكم الحياة بلا وجع الذكريات ورصيد أحزانها، آسفة على خيبات الأمل التي سببتها لكم مدفوعة بحرص وغريزة الأم... كم من مرة عليك وداعهم والاعتذار منهم بذريعة الأمومة ومتطلباتها؟!

يدعك سيجارته بقدمة مع آخر نفثة دخان، تجشأ ومن ثم أحكم قبضته متقدماً بي إلى فراغ معتم، لا يشبه الهاوية التي رسمها عقلي، وأجلسني على دكة خشبية صلبة... أأبعد عن الموت خطوات أخرى؟ ارتخت عضلاتي المتصلبة وهدأ اضطراب قلبي وإيقاع أنفاسي، يا لهذه اللعبة الماكرة! الموت يمد حبائله ثم يرخيها، أتنفس الصعداء مع صوت غلق الباب عليّ وتسلل النور الشاحب من عتبته، يوم آخر أم ساعة إضافية على موعد حتفي؟

الإرهاق والتعب استبدا بي مثلما الانتظار حرق آخر شبر في تصبري واصطباري، فغفوت لمدة من الوقت لا أستطيع تقديرها بالضبط لكن الضوء المتسرب من فتحات الباب الخشبي يشي باعتلاء الشمس صهوة نهار جديد على إثره زقزقت عصافير بطني فألقمتها حجراً... لا أعرف كم تدوم إقامتي في هذه الغرفة؟ أفضل من ذلك القبو المعتم النتن ولو أن النمل لا يزال يلاحقني بوخزه وقد تبقع جسدي ببقع حمراء متهيجة ما أنفك عن هرشها فتسوء الأمور أكثر، يا لهذا النمل! ربما رائحة جلدي تجذبه... إصبر حتى أموت وسيكون هذا الجسد بأكمله لك.

في الخارج أسمع صوت جلبة فأطمئن أن الأمور بخير وأفضل من عزلة الأيام الماضية والنفي إلى مكان ناء، هل قرروا فك أسري؟ ليس بالمعقول أن يقتلوني أمام أولئك الناس الذين تلوح خيالاتهم من خلف شقوق الباب وعصابة ارتخت عقدتها وانحسرت شيئاً فشيئاً عن عيني، الغرفة صغيرة بسقف منخفض نوعاً ما وجدران صخرية عتيقة تشقق وجهها، مهجورة متوحدة وما من علامة تشير إلى عكس ذلك، أي ورطة أنا فيها أدركني يا ربي؟!

الانتظار بشع يربك الروح ويغلق نوافذ العقل والبصيرة، فتتملكني رغبة شديدة في الصراخ والصراخ، لقد قهر أولئك الحيوانات إنسانيتي وكرامتي، ما لهم لا يسارعون إلى الخلاص مني؟!... كان يشتهي الموت ليتخلص من آلامه ووحشة مصيره المقيد بالكرسي، باعت أمي مصوغاتها الذهبية وباع والدي ما ورثه من أرض عن أبيه كي يشتروا الشفاء لشهاب من بلاد الهند البعيدة، لكن ما من نتيجة بقي نصفه السفلي ميتاً عاجزاً عن الحركة ولم يعجز لسان أمي عن الدعاء والتهجد أملاً في رحمة الله

وكرمه، أرجو أن تكونا فطنتين كفاية كي يخفيا عنها نبأ اختفائي ولو لفترة من الوقت.

تتعالى الأصوات، تتجاذب ومن ثم تخفت ليبقى صوت واحد يمسك بزمام الأمور كما يخيل إليّ، يهدأ الجمع الفضولي المهتاج بنبرة حازمة منه، يتملكني شعور بالرهبة مما هو قادم رغم تسليمي بالنهاية، هل ينوون التخلص مني أمام شهود عيان كأني مجرمة حرب! ما بالهم؟ لا أفهم ما يجري حولي! لطفك يا الله... جمع غفير محتشد، وجوههم متباينة بين محرض وآخر متجهم لا يملك حق الرفض، صراخ ونشيج، تتدافع عيناي بفضولها نحو مصدر الصوت، فألمح مع اقترابي امرأة جاثمة على الأرض، منكوشة الشعر والهيئة ملطخة بالتراب، ومن بين دموع حرى تستنجد طالبة الرحمة متوسلة عند أقدام (والله ما سويت شي، والله ما سويت شي، رحموني ما سويت شي) ثلة من الشباب الشداد الملثمين بالأسود كالشياطين وقد أخذوا على عاتقهم مهمة تنظيف المدينة من الدنس والرذيلة، صوتها المقهور نفذ إلى أعماق روحي ممزقاً، وما هي إلا لحظات حتى نزل أحدهم بسيفه الطويل القوي

اللامع على رقبتها بسرعة خاطفة متوحشة فاصلاً الرأس بعيداً متدحرجاً عن بركة الدم والجسد الحار المكوم النازف.

ابتلع الجميع دهشتهم ولسانهم على هذا المشهد الدموي المباغت حتى أشار أحد الشيوخ بتغطيتها بقطعة كارتون وخرقة تشربت الدم، لم يقوَ أحد على رفع جثمان تلك المرأة ودفنها بعدما أمر أولئك الملثمين السود بتركها في الساحة العامة طعاماً للكلاب التي نهشتها ولم تبقِ منها سوى آثار دم مضمخ بالتراب زال هو الآخر بعد عدة أيام كآخر أثر لجريمة ترتدي قناع الطهر والشرف.

تركت تلك الحادثة البشعة أثراً عليّ لم تمحه الأيام كما فعلت مع بركة الدم بل وارته بين ثنايا روحي كمسمار يحزها بين الحين والآخر، ما أبرح أسأل نفسي معنفة كيف استطعت المشاركة في تلك الجريمة ولو بالنظر؟!... لكن ما حدث جاء مباغتاً، لم يستوعبه عقل، ساجدة على الأرض تنوح وتتوسل لينقطع صوتها فجأة، مشهد مهول وجفت منه القلوب وسكنت الحواس وهلة، ليلتها لم أستطع النوم، كوابيس وأجساد مقطوعة الرأس تتخبط في ظلمة متناهية تلاحقني بلا هوادة فأصحو صارخة مفزوعة، عانيت من

تلك الكوابيس مدة من الزمن كعقوبة أستحقها بلا شك حتى باتت الأدوية المهدئة جزءً من برنامج نومي المرتبك.

ضوء الشمس المبهر ينسل إلى عينيّ المعصوبتين عند قرقعة فتح باب الغرفة الذي يطل منه خيال شخصين يقبضان على ذراعيّ بيدين غليظتين تغوص أصابعهما بلحمي، في شدة لا موجب لها، فأين أفر منهما؟ يقتاداني خارجاً حيث النور ونسمات الهواء تلاعب خصلات شعر نافرة من حجاب مرتخ لا أستطيع شد عقدته... يا لك من بائسة! أنت مقدمة على الموت ولا تزال ترهق عقلك مثل هذه التفاصيل المتعلقة بمظهرك... كان ظهوره المترقب من الملايين على شاشات القنوات الفضائية العديدة مثابة صدمة ومفاجأة شديدة، شعره المشعث الأبيض المتداني من رقبته، ملامحه المرهقة ونظراته الخدرة المذهولة، هندامه الرث، صور أثارت العالم محطمة تلك الهيبة الجامحة... أجلساني على دكة كونكريتية صلبة وسط هياج وتبرم بعضهم وسخطه، ليتني أفهم ما سبب كل هذا؟ واثقة أن هناك لبساً في الأمر وحتماً أني لست المعنية، لن أغفر لهم سوء اشتباههم هذا، أبداً لن أغفر لهم وسأقاضيهم جميعاً.

تمر دقائق من الهرج والمرج، هتافات مطالبة ومنددة، آه لو يخرجوا الخرقة من فمي لأوضحت المسألة وزال الخلاف، يقبل أحدهم نحوي رافعاً العصابة تماماً عن عينيّ ويزيل الخرقة مع اللاصق عن فمي الذي خدره الوجع، فاكاً وثاقي، ينكمش جبينها وينعقص حاجباها، مقلصة عينيها في رد فعل طبيعي إزاء الضوء المباغت، تتنفس الصعداء، سيكتشفون خطأهم الفادح معي، تفتح عينيها رويداً على مكان ليس بالغريب عليها وقد زارته عدة مرات، لويت برأسي يمنة ويساراً، إنها القلعة المطلة على أربيل وتحتها تتمركز الأسواق والفنادق وهذه البقعة بمساطبها على شكل مدرجات ومنصتها الكونكريتية تجاور الظهر الأيمن من بوابة القلعة وقد ارتفع سقفها بمظلة كبيرة تحجب نوعاً ما الشمس لم تكن موجودة من قبل... نعم أنا واثقة، في هذا المكان التقطت صوراً عديدة وفي زيارات مختلفة، لن أتيه عنه، فشعرتْ ببعض من الهدوء، لكن ما بال هذه الوجوه متجهمة غريبة تحدق بي مستثيرة حنقي المغلف بالخجل، فأحاول شد كتفيّ والجلوس بثقة لكن إرادتي تتراجع أمام عيونهم الغاضبة ولا أدرك السبب، أستجمع شجاعتي وأنتظر دقائق حتى يهدأ الجمع... عليك المبادرة، هناك سوء فهم، هيا تحدثي إليهم بنبرتك الودودة.

أتفرس بالوجوه، جاهدة في احتواء امتعاضها بابتسامة شفيفة، أرتب جلستي مستقيمة بظهري إلى الوراء، اتنحنح بانتظار اللحظة المناسبة فتباغتني وجوه أعرفها تتصدر فجأة الدكات الكونكريتية الأمامية، ينشل لساني ويفور الدم في عروقي، نعم هم بعينهم، الشاب البغيض وأمه مع صاحب الكرسي المدولب، الممرضة الشابة الجميلة؟! المغنية المغرورة المفرطة في أناقتها وزينتها حتى في مثل هذه الظروف، كذلك تلك الدكتورة الرزينة المتعهدة بحماية الطفولة ورعاية الأيتام يجلس إلى جانبها الشخص ذاته مساعدها، يا إلهي ماذا يفعل جميعهم هنا؟! وعبد الجبار هنا أيضاً؟! متقدماً بخطواته المألوفة شاغلاً دكة قريبة!! نعم تذكرت كان هو آخر شخص ألمحه عندما اختفى مع تلك المرأة قبل اختطافي، أي كابوس أنا فيه؟ هو كابوس، كابوووووس، في أربيل سيتغير مجرى حياتك!

تتقهقر معنوياتي متراجعة... ماذا يفعلون هنا؟! أهي صدفة أخرى؟ أنظر ناحية عبد الجبار لكنه يشيح بعينيه بعيداً عني، حتى أنت يا بروتس! أصبحت على يقين الآن أن في الأمر سراً كبيراً من البداية، فألوذ بالصمت والانكفاء مطرقة برأسي متحاشية سهام نظراتهم المسمومة بانتظار يشوبه الفضول الكبير في معرفة

الحقيقة... يا لتلك الحقيقة التي أفسدت عليك حياتك، واصلت بترديد: إنها لا تحبك حقيقة يا ولدي، ما هي سوى طامعة في وضعك الاجتماعي وحياتك المرفهة، هي لا تحبك حقيقة ثق بي، وكأنك وحدك من يملك مفاتيحها، حتى هرب ابنك منك، ليتك تكفين البحث عنها أو الاتكاء عليها، فللحقيقة وجوه عديدة هي الآخرى قد يسيئك فهمها، فاصمتي ودعيهم يتكلمون.

***   ***   ***

يترجل البغيض من مكانه باتجاهي مصراً على توخي الهدوء طالباً من الجميع بلهجة آمرة حازمة، فيعتدل الحاضرون في جلستهم بشكل سطور متصاعدة على مساطب خشبية تقابل منصة واسعة أجلس أنا على طرفها كممثلة بائسة أمام جمهور متحفز لرميي بالطماطم والشتائم، لكن أين حراس القلعة من كل هذا؟!

بطريقة مسرحية هازئة يعتلي المنصة قائلاً بنبرة ساخرة حقود: سيداتي سادتي الحضور الكرام أقدم لكم الروائية نادية الابرو، فتعلو الهتافات المناوئة المنددة إثر ابتسامة ماكرة تظهر على أسنانه، وترتفع وتيرة الهرج... هل جميعهم غير راضٍ على كتابتي؟ يا للدهشة! لكني لا أستحق هذا التنمر والتعنيف، لم أجبر

أحداً على القراءة لي، ولا أرتضي سوى القارئ الذكي الحريص على تذوق الجمال باختلاف منابعه وأصوله، الرجاء الهدوء، يقولها حاسماً وفي يده بضع أوراق تسلمها من الحضور متفحصاً الأسماء، ولم يغفل عبد الجبار هو الآخر عن تسليمه واحدة، يا الله لا أفهم ما يجري! لكن البغيض يلتفت نحوي كعدوة أوثق خناقها قائلاً بحماس: هذه كلها شكاوي مرفوعة ضدك يا حضرة الكاتبة.

ينتابني قلق مشوب بتهكم وسخرية، دعاوى ضدي! ماذا صنعت لكل أولئك؟ وبالكاد أخفيت ابتسامة حاولت فضحي وكشف ما يضمره صدري من استخفاف بعقولهم لولا أني تمسكت بتحفظي تاركة له الاستغراق في جمع تلك الأوراق وتقديم بعضها على بعض وفق أهميتها أو رصانتها كما أظن هههه، حتى فرغ متمتماً: لن تكتب لك النجاة مع هذه، مشيراً إلى حزمة الأوراق في يده، لم تعلق على كلامه سوى بمط شفتيها قليلاً، غير آبهة أو مصدقة ما يحدث أمامها، غرباء يتشكونها عند محام وغد على تهم وإساءات تجهلها، نافية عنها تماماً صلتها بهم.

أشعر أني في هذا المكان جزءٌ من مسرحية هزيلة قديمة الطراز، البغيض مخرجها ومؤلفها وها هو يوزع الأدوار علينا

وفق إرادته، أي كابوس أنا فيه؟ ماذا صنعت في حياتي يا الله؟! يطلب من الحضور الإصغاء والصمت قبل أن يقول بصوت جهوري حاسم: أفتتحت الجلسة الساعة السابعة صباحاً من يوم الثلاثاء المصادف ٢٠٢١/٦/٢٩، تملكتني الدهشة وكدت أضحك ملء فمي لولا أني رأيت وجوههم المتسمرة الجادة تلزم مكانها مصغية، يا إلهي ما بهم؟! لماذا هم أغبياء هكذا؟ كيف ينصاعون إلى ذلك المهرج آخذين الأمر كله على محمل الجد! أيقيمون محكمة فعلاً؟ ومن الجاني والمجني عليه؟ أهم الحكم والخصم؟! أي جنون هذا! أأنا الجاني؟ لا أصدق! لكن ماذا فعلت؟ لا أعرفهم ولا أذكر أني قابلتهم من قبل، فكيف ينسبون بحقي التهم؟ وما تلك التهم؟!

في الأمر سوء فهم كبير لا بد من تصحيحه: عفواً من حضراتكم، أظن أن هناك لبساً قد وقعتم فيه، لست المقصودة، حتماً لست أنا من تقصدونها، أنا... لم يدعها تكمل عبارتها، وبنبرة متهكمة مرتفعة: سيدتي نحن على دراية دقيقة بمن تكونين، أريحي نفسك من مغبة التعريف بهويتك، جميعنا هنا يعرفك حق المعرفة، وتعالت الأصوات حولي بالإيجاب والموافقة على كلامه، فابتلعت

غصتي وشعوري بالأسف على نفسي وكرامتي، كل أولئك يرغبون بمحاكمتي وتجريمي! أي ظلم هذا وأي محاكمة؟! أصوات منددة ووجوه ممتعضة بنظرات حادة لن تتوانى عن إصدار أشد العقوبات بحقي، بت واثقة من إضمارهم الشر لي.

ينادي على المدعي الأول، الدكتورة غادة الطيب، تفضلي أرجوك إعرضي شكواك... يا الله! أهذه السيدة اسمها غادة الطيب أيضاً؟! أي صدفة هذه؟ اسمها مثل اسم بطـ... تترجل المدعوة غادة من مكانها إلى المنصة بأناقة وكياسة يفرضها عمرها وكذلك هيأتها، تقابل الحضور بابتسامة رزينة وادعة ومثلها للكاتبة، تتنحنح، تخرج من جيبها ورقة، تمعن في سطورها وتتردد في قراءتها، تعاود ثنيها وإرجاعها إلى جيبها، توجه أنظارها من خلف نظارة معدنية الإطار إلى المحامي الواقف على مقربة منها يستحثها على طرح قضيتها أمام الحضور والتعريف بنفسها، لا يبدو عليها الحماس لكن ابتسامتها الوداعة تبقى صمام أمان يضبط مزاجها الانفعالي ونبرة صوتها المبحوحة الخجلة.

اجتاحني الفضول موقظاً فيّ روح الكاتب وولعه في التقصي وسماع قصص الآخرين، فأنصت مراقبة حركات جسدها وكل

تفصيلة فيها، شبه غريب، يا الله! ما كل هذه الصدف؟ أكاد أفقد عقلي، إنها تشبهها إلى حد بعيد وكأنها نهضت من الورق!

غمغمت، شدت على أصابعها بقبضة هادئة مولية نظرها إلى الأمام نحو نقطة بعيدة كنوع من التركيز، عضت على شفتها السلفى في محاولة للتأني، تلعثم لسانها واحمرت وجنتاها، دفعت بطرف سبابتها إطار نظاراتها: الحضور الكريم، لا أعرف ما الذي يتوجب عليّ قوله في ظل هذه الظروف ومن أين أبدأ؟ حقيقة أنا في موقف محرج لا أحسد عليه وأظن أن أغلبكم يشاطرني الرأي بعد أن فوجئنا بطلب الأستاذ كاظم وإلحاحه الشديد على حتمية هذا اللقاء وتسوية كل الأمور العالقة، موجهة نظرة سريعة إلى الروائية المعربة عن دهشتها أكثر الجميع، بالمجمل لا يسعني اليوم أن أرفض نصف قرن من عمري، حياتي، أهلي، لأن بعض الظروف والأقدار لم تكن كما يجب.

- هذا يعني أنك موافقة على قدرك!
- سؤالك غير دقيق يا أستاذ، لكني أستطيع القول أني قانعة وراضية عليه بحلوه ومره.
- إذن لن تقيمي دعوى ضد نادية الابرو!

- كلا لن أقيم، ليس هناك من موجب، ربما لو سألتني ذلك قبل ثلاثين عاماً لكان الموقف مختلفاً، أما الآن وبعد أن مضت بي الحياة ولم يبقَ منها إلا القليل، لا أطمع سوى بسلام داخلي أملئ به كياني.
- أهو نوع من الزهد والاستسلام لقدر لم تكن لك يد في صنعه وأجبرت عليه؟
- ليس زهداً ولا استسلاماً كما تظن، بل كما أشرت تواً هو قناعة ورضا.
- لا أكاد أصدق أذني! أبعد كل ما قاسيته بسببها تتحدثين عن القناعة والرضا! أنسيت يا ابنة الطيب أهلك الذين ماتوا حسرة وقهراً؟ أم مجريات قصتك الحزينة مع ذلك الفرنسي وكل تلك العقبات، عائدة إلى ديارك بلا روح! كيف لك أن تتناسي كل هذه التعاسة التي سببتها لك تلك السيدة المريضة الخيال القاسية؟! كيف تتغاضين الآن عن حقك في محاسبتها وإنزال أشد العقوبات عليها؟! لا أكاد أفهمك يا سيدة غادة؟! حقاً لا أفهمك!!

عمت لحظات صمت مشوبة بالدهشة على الحضور الذي وجهت بصرها إليه بثقة واضحة: نعم لا تستغربوا موقفي هذا، لن أطلب الثأر من السيدة التي منحتني الحياة كفرد محبوب في عائلة جنوبية كريمة، وما أفتأ أشعر بالامتنان لتلك الذكريات السعيدة منها والحزينة، لا أحد منكم عاش معي تلك التفاصيل الجميلة الخلابة والطفولة الغرة، كفكفت دموعها المتحدرة، نعم ممتنة كوني واحدة من أبناء بيت الطيب الذي لا يزال يأسرني ذكره رغم ابتعادي عنه بسبب ظروف العمل و... مقاطعاً حديثها بنبرة متهكمة بعض الشيء: ابتعادك أم هروبك من مأساة النهاية التي ساقتها لك تلك المريضة؟!

- لا أنكر قسوة النهاية وكل التعقيدات الأخلاقية والنفسية التي جابهتها لكن ذلك كله لا ينفي اعتزازي بقصة الحب التي مهدتها لي للوقوع فيها، ما كنت أطمح في عيش واحدة كتلك، وحبيب مثل جاك الذي يأسرني حبه حتى هذه اللحظة، قد تصفني بالساذجة يا أستاذ كاظم لكن تلك هي الحقيقة، لو كان لي الحق في انتقاء قدري وحياتي لما اخترت سواها، نعم لما اخترت سواها رغم الحزن الكبير الذي كابدته كامرأة جنوبية الجذور تحكمها الكثير من

الأعراف والتقاليد وعائلة طيبة الصيت والسمعة وضعت ثقتها في ابنتها، فكيف لي من خذلانهم؟! وتمريغ اسمهم! كيف و...

قفز مساعدها فجأة إلى المنصة مقاطعاً وبنبرة ناقمة: أنا أعترض أشد الاعتراض على قدري والحياة التي رسمتها لي تلك الكاتبة اللعينة، وقد وضعتني منذ البداية في أسر المرض وضعفه هادرة سنين شبابي بين أروقة المستشفيات وصفرة شراشفها الكحولية الرائحة، ولم يكفها ذلك فجرتني إلى ملابسات حب تغيرت ألوانه وتبدلت وجوهه بفعل السنين، تزوجت وأنجبت آملاً الشفاء منه، لكنني لا أزال حتى هذه اللحظة مريضاً به، عفواً سادتي الحضور، فاتني أن أعرفكم بنفسي، أنا سالم الطيب ابن العم الذي قضى حياته في إثر هذه السيدة راضياً بمسميات وصفات عديدة أطلقتها على علاقتي بها إلا أن أكون الحبيب الذي فارقته منذ ربع قرن ونيف في صالة المطار، لم أفز بقلبها رغم محاولاتي العديدة، وبين حماسة وإخفاق أعود إليها ثانية كظلها، لا أفهم لماذا لم تحملي قلبها على حبي؟!! ممَ أشكو؟! مستديراً نحو الكاتبة بسؤاله، وبنبرة يائسة أضاف: أنا البيدق الذي رميت به إلى أوار

قصتك، بسببك تراجعت ثقتي بنفسي، أيعقل بالرجل أن يطيل الوقوف أمام المرآة؟ متطلعاً إلى نفسي بحثاً عن عيوب تقف بيني وبينها، حتى بعد خروجي من إطار الصورة القديمة الكلاسيكية التي قيدتني بها.

لقد فعلت ما بوسعي كي أنال حبها لكن شبحه ما يبرح راقداً في عينيها الحزينتين، حتى أكاد أقسم أني أشعر بظله يرافقها أينما حلت، وكم يعذبني ويرهق روحي رؤيتها شاردة بعيدة إلى ذكريات وتفاصيل تجلب ابتسامة إلى شفتيها فأدرك أنه سببها، لماذا؟... لا أفهم ما الطائل خلف هذا الأسى والعذاب الذي غرستنا فيه؟! بالله عليك ماذا كان يدور في خلدك كي نقاسي ونكابد خيبات أحلامك وحبك المستحيل؟ أخبرينا كيف تنظرين إلى الحب؟ موجهاً سؤاله إلى نادية الابرو التي تلوت في مكانها تعصر أصابعها في حضنها وقد باغتت تعابير وجهها رعشة اندهاش غريبة وظلال جواب كظمته في صدرها منكمشة على نفسها لائذة بالصمت خياراً وابتسامة بلهاء ارتسمت على تقاطيع ذاوية، فبادرها لماذا أنت صامتة الآن؟... ما كان عليك إمساك القلم الذي نأيت بنفسك عنه سنيناً طويلة، والانجراف برسم شخوص وظروف تضاهيك تطرفاً

وقسوة على نفسها أو على الآخر، يا سيدتي أنت ممسوسة بفكرة الحب العصي، الصعب المنال، دافعة بنا للاحتراق بلظاه، ولا أظنك قاسيت لأجله أو غامرت للبحث عنه يوماً، أنت يا سيدتي في واقعك امرأة جبانة ساحة بطولاتها الورق، هلا تمعنت في الوجوه التي أعياها التعب وغالب روحها الشقاء في اتباع فرضيات وظروف وحدك فقط من وضع أسبابها ونتائجها، سيدتي أتمنى عليك مراجعة طبيب نفسي هذا إن كتب لك الحياة، ولا أخفيك أني سأسعى بكل عزمي كي تنالي جزاءك العادل، لم أبغض شخصاً بحياتي قدرك، قال جملته الأخيرة متوعداً يتطاير الشرر من عينيه متخذاً طريقه نحو دكته بين الحضور.

توجهت السيدة غادة بالحديث وجهاً لوجه مع الكاتبة: سيدتي أود القول وللمرة الأخيرة، أنه لو قدر لي الخيار ما كنت سأختار سوى جاك حبيباً وبيت الطيب أهلاً، وقد شابت عينيها نظرة امتنان في طريق نزولها من المنصة على وقع غمغمة بعضهم ونظراتهم المستاءة وصمت نادية الابرو المطبق وانذهالها الشديد مما يجري حولها غير مصدقة، قارصة ذراعها عدة مرات كي تصحو من حلمها الغريب الذي ستقصه على أهلها في جلسة شاي الظهيرة بعد

وجبة غداء سمك الصبور المشوي، مستغرقة في خيالها لكن لا، فمطرقة الواقع تواصل الدق على رأسها بإزميل كاظم الذي يمسك أوراق إدانتها منادياً على وفية إحدى ضحايا رواياتها المشؤومة.

رفعت نادية الابرو رقبتها في فضول شديد لمشاهدة المدعوة وفية، وإذا بها المرأة الجنوبية التي التقتها في المستشفى... يا الله، منذ الوهلة الأولى تلك شعرت برابطٍ وكيمياء غريبة بيننا، بدا وجهها مألوفاً لدي دون أن أفهم السبب، لكن كيف؟! الأمور تزداد تعقيداً، وشعرة تفصلني عن الجنون... كذلك التفت الجميع نحوها منتظراً، تلعثمت وبان الخجل والارتباك جلياً على محيا قمحي قهرته الشمس والسنين، يدها تقبض على مسند الكرسي المدولب، كأنها تستمد قوتها من صاحبه، وقد تصلبت عروقها، همهمت وتلكأت في البحث عن نقطة انطلاق، نظرت في عيني كاظم مستنجدة، فأغاثها قائلاً: ليس هناك من داعٍ للحرج أو الخجل، كلنا معك وما عليك سوى طرح قضيتك.

بعد تحفظ وتردد أومأت: لله المشتكى، ما كان في حسباني يوماً عرض تفاصيل حياتي الشخصية أمام الآخرين، ولا شكوت لأحد، ما بالك يا كاظم؟ لماذا تضع أمك في موقف كهذا؟ الماضي البعيد

صفحة طويتها ولا أنوي الرجوع إليها وفتحها من جديد وعلى مرأى كل هولاء! مشيرة إلى الحاضرين، متلفتة نحوهم بشيء من الحرج والضيق الذي نشعر به حين تتربص بنا عيون الغرباء، لقد جررتني إلى هنا دون إخباري، ورطتني معك، ما كان يجدر بي الانخراط في خطتك هذه والقدوم معك، تماديت للغاية يا ولدي وخرجت عن حدود العقل والمنطق، طلبك للثأر مدعاة ألمك الدائم وحزنك العميق يا كاظم.

خيم الصمت ثواني، تلاقت عيونهما وهلة، فحسر نظراته ناحية الحضور حتى أعقبت مسترسلة معاتبة: أخبرني يا كاظم أبعد هذا العمر تود فضح أمك ثانية والتعريج على ذكريات مؤلمة وسخة ما أفتأ غسلها بماء المغفرة والنسيان، لكني لن أخيب ظنك وإليكم يا سيدات وسادة، بصوت متحشرج مبحوح أردفت: أنا المدعوة وفية إحدى ضحايا الحروب ومثلي مئات من النساء اللواتي تعرضن للوحشية والاغتصاب في السجون والمعتقلات، ألم وانتهاك ليس له مثيل ولا يدانيه أي وصف أو كلمات قد يتجشأها كاتب في خلوة مع نفسه سارحاً بخياله، فالسيدة نادية وإن كتبت عن السجون وعذاباتها لكنها لا تعي المعنى الحقيقي للصراخ، لا يفهمه سوى

نحن القابعون في ظلمة الزنزانة بانتظار الدور، فكل صرخة لها معنى مختلف وصدى وتردد، النشيج المتقهقر، البكاء والأنين المكتوم في زاوية الزنزانة العفنة، عذابات لن يدركها سوى من عاشها وتمنى الموت بشدة للخلاص من قبح السجان وبشاعة قسوته في الاستجواب، لكن الانكفاء على الذات وإرهاقها حسرة على تلك السنوات هو تعذيب آخر لا طائل منه، سرت همهمة بينهم قطعها كاظم بملامحه الكدرة المكفهرة سائلاً: وماذا عن زينب؟ هل طوت صفحتها ذاكرتك بعدما أكل جسدها الضعيف المرض؟ وذاك المولود الصغير الذي لم يتجاوز عمره بضعة شهور ماجـ... تحشرج صوته مبتلعاً لسانه غاصاً بدموع كفكفها بكم قميصه، هل نسيته هو أيضاً؟!

صدقيني يا أمي لا يمر يوم عليّ دون تذكر صراخه ممدداً على ظهره تثير قدماه رمل الحفرة الجاف بحثاً عن أمه التي تركته ولم تلتفت نحوه هاربة.

- إخرررررس، إخرس، يكفي هذا، أما سئمت من تكرار السؤال ذاته؟! أليس في قلبك رحمة لأمك؟! تزداد نبرة صوتها حنقاً، نعم لقد خذلته، خذلته، كنت مجبرة على ذلك،

كي أنقذك كان لا بد لي من التضحية به، ما كنا لنصمد مع ضمأ وحر تلك الصحراء لو اصطحبته، أأستطيع حمله وأنا الجريحة أم أسير بك بعيداً عن عيونهم؟ أخبرني ماذا كان عليّ فعله؟! وأجهشت في بكاء غزير، فحاول بعض الحضور التخفيف عنها رغم اندهاشهم من قسوتها ورباطة جأشها على ترك رضيعها في حفرة الموت ينازع إلى الرمق الأخير.

اعتلت المنصة على غير هدى متعجلة: لا تنظروا إليّ باستنكار رجاء، صدى صراخه لا يزال يلاحق مناماتي، يداه الصغيرتان الممدودتان نحوي تأهباً لحمله، مناغاته وابتسامته البريئة، صور مفجعة ما تبرح ذاكرتي في استدراجها إلى رأسي كعقوبة أحيى معها تكفيراً عن ذنب عظيم، بني كاظم إعلم أن أمك قد دفعت الثمن غالياً كي تنجو أنت، كنت مضطرة صدقوني، هسيس وهمهمة تعالى بين مناوئ رافض وآخر مشفق على خيارها القاسي لاقياً اللوم والشتيمة على تلك الكاتبة النرجسية الدميمة، واستدارت نحو نادية الابرو موجهة حديثها بنبرة هادئة حزينة: أدرك تماماً أن أمرنا ما عاد يعنيك بعد أن كتبت سطورك الأخيرة

في قصتنا وأغلقت عليها داخل كتاب طبع عليه اسمك كغاية أخيرة، لكني أخبرك أنني ومنذ أكثر من خمسة عشر عاماً أعمل في حضانة للأطفال، لا سعياً للمال مثلما قد يظن بعضكم بل انتقاماً من نفسي وإيغالاً في تعذيبها وأنا أهدهد كل صباح الصغار فيتمازج صوت كركرتهم وصراخهم مع صوته، جنون أعيشه كل يوم ووجه ماجد يلوح لي بينهم، يضحك معهم، يخطو درجات السلم يسبقهم، يلعب الكرة في الحديقة، سيدتي الكاتبة أنا في عذاب دائم، لم أكن بالقوة والبأس الذي رسمته لي، لا أعرف من منا خذلت الأخرى، لكني أدرك جيداً أني خذلته، فماجد لم تقتله حفرة الموت بل أمه، أنا قتلته بدم بارد كما ألهمك خيالك، كان الأجدى بي صم أذني عن وسوستك، أنا أمه ولست أنت، أنا أمه، ومرارة طعم الغدر لا تزال في فمي عالقة، فماذاعنك سيدتي؟! هل تذكرينه؟ وهل أنبك ضميرك في لحظة عليه؟ أنت شديدة القسوة، وأنا أكثر قسوة منك، المسكين قتلناه، أنا وأنت أكثر وحشية من أولئك الذين ساقونا إلى الحفرة بوجوههم الرثة وعيونهم الدموية المتغطرسة.

زفرت نادية الابرو هواءً ثقيلاً متنهدة دون أن تنبس ببنت شفة وعينا وفية متعلقة بها بحثاً عن جواب أو تعزية لروحها المتعبة، فتدخل كاظم مقاطعاً: انظروا إليها يا سادة، بلا دم وإحساسها ميت، فلا ينتظر أحد منكم مواساتها أو شفقتها عليه، هي إنسانة عديمة الضمير، لم يكفها ما لقيناه في عتمة الزنزانة حتى ألقت بنا إلى فم الصحراء وذئابها والأدهى أن ذئباً بشرياً تلقفنا قبلهم، وسعى بكل ما أوتي من حيلة إلى سجننا في زنزانة أخرى بنافذة بانت من خلف زجاجها المغبر في ظهيرة عابرة طرف ملابسه الداخلية البيضاء، هل عرفتم يا سادة ثمن صمته على هاربين من سجن نگرة السلمان؟ الثمن الذي مزق حياتي وأهان رجولتي وأنا في كل مرة أشم رائحة عطره الكريهة عالقة في غرفتنا، طافية على وسادة والدتي، هل حياتي البخسة تستحق يا أمي كل هذه التضحيات؟!... لا أظنها، لا أظنها، ليتنا متنا في تلك الحفرة مع الآخرين، ما كان عليك أن تتصدي لرصاصهم بجسدك كي تحميني، لم ولن أستحق كل ما فعلته لأجلي.

- صه... صه أرجوك، يكفي هذا، ليس حرياً بك أن تعري والدتك بهذا الشكل، متجاوزاً الدكات بقدمين هرمتين باتجاه

المنصة، واقفاً إلى جانب وفية التي تبقع لونها وتفصدت على جبينها حبيبات عرق دون أن تفك وثاق عباءتها المحتمية بها كدرع من كلام كاظم الذي صفق بضراوة مرحباً بالقادم بنبرة ساخرة خبيثة: الحضور الكريم أقدم لكم الذئب البشري، أقصد عبد الجبار.

هالتها الصدمة أن يكون عبد الجبار فلاح حديقة بيتها هو ذاته عبد الجبار... يا للهول، أأنا في كابوس؟! أكاد لا أصدق ما يجري حولي، سأجن حتماً... نعم هو عبد الجبار الذي طاشت الرصاصتان في اختراق قلبه حين ضغطت بسبابتي على الزناد بعيداً عنه لا تستغربي ذلك، لا أفهم ما الذي حل بي في تلك اللحظة الحاسمة؟! وكيف قررت في لحظة ضعف الصفح عنه شاعلاً النار في طرف الغرفة تماشياً مع رغبة الكاتبة وتخطيطها للأحداث، واستدار كلية نحو الكاتبة التي حرضتها الدهشة سائلة:

- لكنك صوبت بمسدسك نحو صدره برصاصتين! كيف يحدث هذا؟!...
- على رسلك يا سيدة، على رسلك، يعلم جميعنا أنك من يوجه مسرى أقدار كل واحد منا، لكن تذكري نحن لسنا

بالعبيد ويصدف جداً أن نتصرف بإرادة تخالف رغبتك، وهذا ما حدث معي، في لحظة الضغط على الزناد أشحت بفوهة المسدس عنه، نعم للآن لا أفهم كيف حصل هذا!

- ممتاز أنت تعترف الآن أني لست الوحيدة المسؤولة عن رسم أقداركم وخطط حياتكم، بل على العكس لقد منحتكم الفرص الكافية على الاختيار، جميعكم شارك معي في خط قدره واختيار طريقه و...... قاطعها كاظم: رجاءً، لسنا بصدد سماع مبرراتك، ما عليك سوى الاستماع، موجهاً بنظراته نحو عبد الجبار في إيماءة له بالكلام.

تلكأ عبد الجبار وتلعثم لسانه من تقديم كاظم المستفز له، لكنه حاول التمسك بوقاره وهيبة الشيب الذي كسا لحيته الملفوفة بكوفية مرقطة، قائلاً بنبرة متريثة هادئة: لا أنكر قسوتي وسوء معاملتي لهذه المرأة من ابتزاز وانتهاك، لكني تغيرت وأنت تعلم ذلك جيداً، نعم تغيرت يا سادة وكأن الله بعثها لي من جوف الصحراء لتعترضني تائهاً أستدل طريق العودة بعد ليلة سكر ومجون.

حنانها، نبل ودماثة خلقها أعادا بي إلى إنسانيتي إلى عبد الجبار الطفل اليتيم الذي طالما رزح تحت مغبة صراع ومناكفات زوجة

أب طائشة، وجدة مسيطرة متحكمة تكابر الزمن مع عمة لا هم لديها سوى الزواج والفكاك من ظلال العنوسة الثقيل ناهيك عن أب تغافل وجودي في البيت حتى سقطت من ذاكرته المحملة بأحلام زوجته الشابة العاجزة عن الإنجاب أو تبني اليتيم، الطفل الجرذ الذي يقضي نهاراته بعد انتهاء الدوام المدرسي في تفريغ حوض الصرف الصحي الطافح أغلب الوقت، بدلاء معدنية تشققت يداه من حملها خارجاً دون سماع كلمة شكر أو حتى عطف.

وفية وحدها وجدت ذلك الطفل، هدهدته، أسبغت عليه من وافر طيبها فأينعت روحه الخاوية وتهذبت أخلاقه وطبائعه الشرسة، وفية صالحت عبد الجبار مع ذلك اليتيم المتحامل على كل من حوله في رد فعل متطرف يضاهي ما لاقاه من قسوة وتهميش عائلي أفقده الإيمان بقوة الحب وسطوته حتى وقع أسيراً فيه لا ينشد سوى رضا وصفح وفية أمك، الإنسانة الملهمة التي أمضيت وقتاً طويلاً في العثور عليها ثانية وفقداني الأمل في إيجادها بعد خروجي من المستشفى.

شهور عصيبة لا أود استذكارها رغم أن آثارها تدمغني كوشم، مشيراً إلى وجهه ومشمراً عن ساعدين تكرمش جلدهما بفعل النار، قاطع كاظم بفضاضته المعهودة عبد الجبار، مانعاً استرساله في الحديث عن مشاعره تجاه والدته بسؤاله: والآن بعد كل ما لاقيته من عذاب جُبل من البداية بيتمك منتهياً بحرقك بهذا الشكل البشع، ماذا تقترح أن يكون عقاب تلك الكاتبة المدعية؟!

بعد صمت وجيز وتفكر: لقد قضيت سنيناً أعمل عند هذه السيدة، في البدء كنت قد أعددت عدتي في الانتقام منها وتخريب حياتها، لكني يوماً إثر يوم أتراجع عن قراري تحت حجج كثيرة، أولها تعلقي بأولادها الذين كبروا وتفتحت زهرة شبابهم أمام عينيّ وبت الرفيق الأقرب والجد الحنون لهم، فهل ينتقم الجد من أحفاده؟!

لم يكن في الحسبان أن أرضخ ثانية لقوة الحب وأنزع سلاحي، وبشأنها، مشيراً نحو الكاتبة المصغية بانتباه له وعلى سيمائها علامات التأثر البالغة، فبعد عشرتي الطويلة معها أدركت أنها طيبة ودودة، شغوفة تطمح إلى الكمالل، وما الكتابة لديها سوى تعويض عن خسارات، بالتأكيد لا أتفق معها في بعض المجريات

التي ساقتها لحياتي، لكني في النهاية ممتن للحب الكبير الذي غرسته في قلبي لوفية، ممتن لتلك التجارب القاسية التي صقلت روحي وصولاً بها إلى ينابيع إنسانيتها، لن أراوغ في الإجابة ولا أود الإطالة عليكم لكني حتماً أصفح عن السيدة نادية الابرو ولا أجدها مذنبة بحقي.

بان على ملامح الكاتبة ابتسامة امتنان ومودة وهي تقول: وأنا أشكرك من كل قلبي على هذا التفهم و... لم يدعها كاظم ثانية من إكمال جملتها بعدما لمح تعاطف بعضهم مع عبد الجبار وانحيازهم إلى رأيه، رجاء عد مكانك واترك الجلسة تأخذ مجراها الطبيعي، ناظراً إلى ساعة يده مؤذناً بانتهاء وقت عبد الجبار وإعطاء فرصة لغيره، ملاحقاً خطواته الثقيلة في ترجله عن المنصة بعينين حانقتين ملتهبتين مغمغماً مع نفسه: لا أفهم لماذا ضعفت حينها ولم أسدد المسدس إلى صدره؟! وهنا تقدم رجل الكرسي مسافة خطوات نحو عبد الجبار كنوع من الموآزرة والمواساة لأبيه وقد بان على ملامحه الصافية الاستياء، متمتماً بكلمات غير مفهومة لكن كاظم تدارك الموقف هاتفاً: أقدم لكم يا سيدات ويا سادة أحد ضحاياً تلك الكاتبة الشقية وعبد الجبار الذي تخلى عنه مستنكراً أن يكون له ابن عاجز، أمين رفيق عمري وأخي الخارج من رحم الحياة ومعاناتنا المشتركة.

سلط الحضور أنظارهم نحوه وقبل أن يتمادوا في شعورهم بالشفقة عليه، رفع رأسه نحوهم معتدلاً في كرسيه، وبنظرات واثقة مطمئنة تفحص وجوههم قبل أن يقول: أرجوكم وفروا هذه النظرات التي طالما حاصرتني وحاولت عن غير عمد إضعاف إرادتي وثقتي بنفسي، كوني كسيحاً هذا لا يعني مطلقاً أني إنسان عاجز، وأقل منكم مرتبة أو كفاءة، فالإنسانية لا تتمحور حول قدمين أو يدين كما يعتقد أغلبكم، الكرسي هذا منحني حرية الإدراك والسمو الذي قد يعجز الإنسان في الوصول إليه بجسد كامل، أبداً لم يكن عائقاً أمام طموحاتي التي أدركتها هذه السيدة مفسحة الأفق أمامي للمزيد من التجارب والخبرات التي أكسبتني فن قراءة النفس البشرية والتوغل في أكثر متاهاتها عتمة.

قراءة الكتب والإصغاء إلى صوتي الداخلي في سن مبكرة فتحت لي مغالق أبواب كثيرة كانت مسدودة لمن في عمري حيث أكبر همومهم الجري خلف كرة القدم التي لم تمسها قدماي رغم آمالي وأحلامي العريضة في أن تطئا ذات مرة عشب الملعب الندي الأخضر، موقناً مع الوقت أن جناحين قد نبتا لي بدل تلك الساقين الضعيفتين المعوجتين، فحلقت عالياً مكملاً دراستي

الثانوية والجامعية لأغدو أستاذاً في كلية التربية قسم علوم النفس، الحضور الكريم لست الوحيد الذي تجاوز عجزه فلا تنظروا إليّ الآن بعين الإعجاب والدهشة، هناك الآلاف ممن عبد طريقه بلبنات التصميم والإرادة مدفوعاً بحنان وصبر أم لا تعرف لليأس طريقاً وأمي وفية إحداهن، رفيقتي وملاذ روحي الأبدي.

صفق الحضور بيد واحدة ودموع تلوح مهللة شاركتها معهم نادية الابرو شاعرة بالحب والفخر في أمين ولروحه النبيلة الأخاذة، لكن يبدو أن لحظات التناغم والألفة المشتركة لم ترق لكاظم الذي امتقع وجهه مطالباً بالهدوء وموجهاً سؤاله الخبيث لأمين: أفهم من هذا أنك تصفح عن تلك المرأة! متناسياً أنها السبب وراء رفض زميلتك وتعسفها في مقابلة مشاعركَ التي بدت أمامها ناقصة لا تحملها قدمان، أحقاً نسيت لوعة الأمس ورائحة قلبك المحترق؟ لا أصدق أنك قد تجاوزت ذلك الألم وما عزوفك عن الزواج منذ ذلك الحين رغم توسلات أمك وفية التي جاوزت عمر الجدة دون أحفاد تذكر إلا دليل علـ...

- يكفي، أظنك قد تجاوزت حدودك، من سمح لك بإفشاء أسرار أخيك وابتزاز مشاعره على هذا النحو المقيت؟**!**

سحبت وفية مغتاضة كرسي أمين إلى مكانه حيث تجلس وعلى وجهه ابتسامة حزينة ونظرة آسفة لا يقوى كاظم على مواجهتها بسوى الصمت والندم.

*** *** ***

أي جنون أطبق على عقلي وجرني إلى كتابة تلك المآسي؟ من خولني ذلك؟ من أعطاني الحق في خلق شخوص والعبث بمكنونات أرواحهم وأقدارهم؟! يا لي من ظالمة! لا أستحق رأفة أو تعاطف بعضهم، لا أستحق، أمعن النظر في وجوههم الواحد تلو الآخر... تقصدين وجوه ضحاياك... نعم سمهم ما شئتِ فالنتيجة واحدة، لماذا كان عليّ تخريب حياتهم بمواجهات وتجارب قاسية ملعونة، أنا نفسي لا أقدر على مجابهتها؟! أما كان حرياً بي التفكير في مصائرهم قبل أن أباشر الكتابة؟! من أعطانا تلك السلطة الشنيعة في فرض الشقاء والبؤس على أبرياء كل ذنبهم أنهم نتاج عقولنا المريضة وخيالاتنا المتطرفة المعتوهة التي ما ننفك تشيد عوالم حتى تعاود تدميرها مع النهاية غير آبهين بحياتهم التي

أثقلناها بصديد أرواحنا وجروح انكساراتنا، أي ملعونة أنا!... لم تكوني وحدك من اختار لهم تلك الأقدار، هم أيضاً مضوا بأنفسهم إلى مسالك وخيارات أنت نفسك تفاجأت بها... لا أظن أن هذا مسوغٌ كافٍ أمام ما صنعته أنا بهم، يا الله أغثني وإن كنت لا أستحق عونك ولا صفحهم، فلا قوة لدي على مواجهة الحقيقة التي طالما ألزمتهم بها كأسلوب حياة، يا لي من متناقضة جبانة! مطأطئة رأسها وقد غالبها الشعور التام بالذنب.

يواصل كاظم حشد الجموع وتأليبهم ضدها في استراحة قصيرة لاستئناف سماع بقية الضحايا وهاله أن ذهبت أمه بكأس ماء إلى الكاتبة بعدما لمحت إمارات الشحوب والإعياء عليها، وإذا به يقول: ها يا كاتبتنا المبدعة هل أرهقك العطش ونال منك التعب؟ فكيف بوفية مع ولدها الصغير وذراعها الجريح يروي فم الصحراء العطِش؟! عار عليك أن تستدرجيها ثانية إلى حبائلك، أمي امرأة بسيطة لا قوة لها على مجاراة خدعك وألاعيبك اللفظية، بالكاد تحررت منك على سرير المستشفى نائحة خائفة على ابنها من هول النهاية التي رميت بها كبصقة في الوجه، وأنت تنفثين سمك في روحه، والشكوك في عقله، مؤججة نار حقده، مثلما واصلت الخطة البشعة ذاتها مع الدكتورة إيمان، أتذكرينها أم هي

الأخرى بيدقٌ تخلصت منه بعد إتمام مهمته ودوره في لعبتك المدمرة، فيا لتلك المسكينة وكيف خاب أملها في الحب وتراجعت معنوياتها حين أطلقت في رأسها الهواجس والظنون، موغلة في تعذيبها بفكرة أن عمار حبيبها وخطيبها الضابط العسكري قد تخلى عنها متناسياً أمرها خشية أن يطال سمعته أي شرر لاسيما بعدما استبيحت.

فضلت البقاء في الحفرة والنزف حد الموت على الهروب معنا إلى حياة لا وجود لعمار فيها، لقد أذعنت إلى رغبتك المريضة معاقبة نفسها على جريمة هي فيها الضحية لجلادين هتكوا شرفها تمادياً في إهانتها وتدنيس كرامتها، ما كانت خائفة من الموت، لا أزال أذكر للآن جلستها متكئة بظهرها على حافة الحفرة وجانبها ينزف في استغراق وسلام تام مع الموت وهو يقطف بأرواح إخوتها ووالدها وكل نزلاء ذلك السجن المهيب الموحش، لا تظني أن بموتها تسقط قضيتها ضدك، فأنا من سيأخذ حقها منك وحق جميع الذين شوهت حياتهم ودمرتها بلا ذنب سوى رغبتك المريضة بالكتابة دون أدنى واعز بالمسؤولية، فتباً للرواة أمثالك.

من بين لغط وغمغمة تصاعدت بين الحضور المترقب للقضية القادمة، التفت الأنظار دهشة وإعجاباً بالحسناء الجميلة الشاقة خطواتها بينهم نحو المنصة على مرأى من كاظم الذي أشار نحوها سائلاً الكاتبة: أتعرفين من هذه؟ أنظري إليها جيداً ولا تقولي إنها الممرضة التي التقيتها في المستشفى قبل أيام، رمقته الكاتبة بدهشة مؤكدة أنها ذاتها الممرضة الحسناء، لكن كاظم سألها ثانية أن تمعن النظر في هذا الوجه الملائكي ملتمساً إجابة أكثر تركيزاً ودقة من السابقة.

- لم ألتقها من قبل، ولا أعرف عنها إلا ما أخبرتك، وعيناها لا تزالان تتفحصانها بنية صادقة في تذكرها، حاكة صدغيها لأجل إنعاش ذاكرة ما عادت تركن إليها.
- لا ترهقي نفسك سيدتي في استذكار ضحاياك فهم كثر، انكمشت تقاطيعها مقطبة جبينها ولم تعلق بكلمة، هذه شيرين. حملقت الكاتبة فيه، رفعت حاجباً ومطت شفتها قبل أن تغمغم:
- أعلم أن اسمها شيرين! فأردف كاظم: بل شيرين الفتاة الكردية التي هتكت السجون بكارة طفولتها، هل تذكرتيها الآن؟

- غير معقول، مستحيل، لقد ماتت، نعم أذكر جيداً أنها ماتت، قابضة على صدغها بيد مرتبكة.
- كلا لم تمت، ها هي أمامك واقفة.
- لكن كيف؟! وعلائم التعجب تظفر بكل عضلة من وجهها.
- الدكتورة إيمان أخفت الأمر عن الجميع بضمنهم أنتِ، حينما اتفقت مع طبيب السجن على إنقاذ تلك الطفلة البريئة من براثن مأمور السجن الحقير، وإعلانها ميتة بعد نوبة إغماء إثر تدهور حالتها البدنية والنفسية على يد ذلك المجرم الذي يسكت ضميره القذر بلوح كاكاو يدفع به إليها ثمناً، فما أقذره وما أتعس خيالك؟!

بعربية تشوبها لكنة محببة شدت انتباه الجميع ناهيك عن حضورها الأخاذ، بدأت حديثها: استفقت في غرفة مختلفة غريبة، أين أنا؟ هذه ليست بجدران السجن الكالحة اللون! فأين أنا؟ وماذا حل بي؟ تلفت حولي بحثاً عن جدتي، ناديتها دون رد، انسكبت دموعي خشية، هرعت نحو الباب أطرقه، فسقطت مدة من الوقت عند عتبته ضعيفة القوى هزيلة حتى انسل من الباب الطبيب الذي ألفت رؤيته في السجن هناك لكن هذه المرة دون ردائه الأبيض

المعتق اللون، شعرت بالاطمئنان حين طلب مني بهدوء وقور الصعود إلى سيارته الخاصة بعدما غطى رأسي وكثيراً من وجهي بوشاح محذراً إياي من الكلام عند نقاط التفتيش، أخذتنا السيارة في طرق بعيدة عن هواء الصحراء اللافح ورائحة رملها، ابتعدنا حتى ولجنا مدناً اتسعت الشوارع فيها وتعبدت، سيارات كثيرة ومارة، دكاكين وأسواق عندها خالجني شعور خانق بأني ابتعدت عمن أحب، فتقاطر دمعي ولم يكن كازم موجوداً ليكفكفه كعادته.

حاول الطبيب مواساة الطفلة التي أنقذها من تلك الفكوك البشرية مقنعاً إياها بحياة أنظف في انتظارها، لكن ماذا عن جدتي وكازم والخالة وفية؟ الجميع ماذا عنهم؟! لماذا لا نعيش سويا؟! رددت هذه الأسئلة على مسامع الطبيب دون أن أحظى منه بجواب، لكنه في لحظة يأس متسرعة وتأثر قال: جميعهم سيلقون حتفهم في وقت ليس ببعيد.

أحسست بانهيار ذلك الركن الآمن من روحي، فأجهشت في بكاء مر غزير حتى جفت مدامعي وأظلم الطريق، وتباعدت السيارات ومعالم المدن، لا أذكر كم استغرقت في غفوتي ولا أعرف أين وجهتنا على هذه الطريق الموحش الملامح، فضاق

صدري مجدداً وشحذت دموعي لكنها ما نزلت ولم أجد سوى الصمت مهرباً لمحنتي... من قال لذلك الطبيب أني أود العيش بعيداً عنهم! ولماذا لا ألقى حتفي معهم؟ بأسلوبي الطفولي ولهجتي العربية المكسرة سألته وما أجابني سوى بنظرات شفقة عبر عينين محمرتين طالها التعب والإرهاق من السياقة المتواصلة لحين توقفنا عند بيت صغير وسط قرية تحفها بساتين أشجار البرتقال وتباعد بين بيوتها الظليلة المختبئة.

أمسك بيديّ ليد الرجل الذي استقبلنا عند الباب بدشداشته البيضاء الفضفاضة، قائلاً بصوت خفيض: هذه الأمانة فاحرص عليها، استبشر ذلك الرجل وبانت ضواحكه من تحت شارب كث خالطه الشيب وهو يرمقني بنظرات أبوية مبتهجة افتقدتها منذ زمن، فتنهدت زافرة عن قلبي بعض همومه شاعرة بالراحة رغم قلقي الكبير على جدتي المسنة التي تكابر مدعية الصحة والقوة لأجل حفيدتها، وها أنا أتركها خلفي وحيدة، فانخرطت في نوبة بكاء عنيفة بعدما أفلت الطبيب يدي متجهاً نحو سيارته وقبلها وشوش في أذني: كوني فتاة عاقلة مطيعة، وسأحرص على موافاتك بأخبار جدتك من وقت لآخر.

وقفت عند الباب أستمع لهدير السيارة حتى ابتعد وتلاشى ضوء مصابيحها ففقدت حينها صلة وصلي بجدتي وكازم والخالة وفية، وذلك المكان البعيد الموحش بفضائه الضيق المحكوم ببالقبضان، وشمسه المتربعة على باحته أغلب النهار، حراسه بشواربهم الممسدة فوق شفاه مشققة رمادية آثمة، وعيون طامعة متأهبة للاقتناص، آمر السجن الدنيء وألواح الكاكاو و... هزت برأسها كمن يهرب من استدراج تلك الذكريات، وكيف دنست طفولتها وأفسد مستقبلها، فلا جلسات نفسية نفعت معها في إصلاح العطب الذي ألم بروحها رغم ما أسبغه عليها ذانك الزوجان من حنان وحب كابنة لهما.

انتظرت طويلاً، وعيناي لا تفارقان الطريق على أمل أن يسعفني الطبيب بخبر عن جدتي ولو كان زائفاً حتى مضت الأيام سراعاً وتخرجت من معهد التمريض محققة حلمي في مساعدة الناس والترويح عنهم، فتوظفت في المستشفى حيث قابلت لأول مرة كازم، شاعرة نحوه بعاطفة خاصة لم أدرك سببها وحين سمعت أخيه يناديه باسمه ازدادت رغبتي في الاقتراب منه رغم معرفتي أنه ليس بكازم الذي أنشده، فذاك ما كان له أخاً واسم والده

جواد وليس عبد الجبار... لكن يا الله لديه العينان البنيتان ذاتهما والابتسامة الحزينة لم يغيرها شيئاً سوى شارب مشذب، ونسيت الأمر بل بالأحرى تناسيته... يخلق من الشبه أربعين، لكن تكرار قدومه إلى المستشفى مع أخيه لأجل جلسات العلاج الطبيعي جعلني أمعن في التفكير به وأزداد ثقة أنه كازم صديق السجن لكن كيف أتأكد؟!

في البداية لفت انتباهي جمالها الفاتن، لكن كعادتي لا أحفل بمثل هذه الأمور ألبتة متعاملاً معها بأسلوب رسمي وحديث يتعلق بوضع أمين الصحي كونها مساعدة الطبيب المختص بحالته، تلك الرسميات والحدود منعتني من التمعن في تقاسيم وجهها التي بدت مألوفة بالنسبة لي... الشبه كبير، لا تورط نفسك ثانية يا كاظم، يكفي صنيعك بشهد المسكينة... ولما أفصحت لأمين عن ذلك ضحك وقال: بت تظن كل فتاة على أنها شيرين، متى تخرجها من رأسك؟!

تملكتنا الدهشة بل صدم كلانا عندما ناداها الطبيب ذات مرة بشيرين... يا الله هي أيضاً اسمها شيرين! ما هذه الصدفة الغريبة؟ وبدأت حينها أقارن ورغم أن شيرين رحلت وهي طفلة إلا أن هذه

الممرضة هي الأقرب شبهاً لها لو كانت شيرين على قيد الحياة... هكذا أيضاً قلت عن شهد منخرطاً معها في علاقة لم تقوَ على إدراجها تحت مسمى الحب الذي لن تكون له نداً وستهرب مثلما فعلت مع شهد... كفاك لا تهول الأمر، ولا أنوي الوقوع معها في الحب.

شبهها الكبير بشيرين دعاني إلى الابتعاد عنها أكثر والتحفظ في الحديث معها بأقل الجمل حتى نادتني ذات مرة: كازم، النبرة ذاتها والصوت الطفولي الحاني هو، فاقشعر بدني وسرت رعشة في أطرافي، متسمراً في مكاني خائر القوى، حدقت في عينيّ ورددت ثانية: كازم أما عرفتني؟!

عاد في لحظة إلى ذاك الصبي ذي النظرة الحنون الدافئة، انشرحت تعابير وجهه، فارقها التجهم، وبابتسامة خالها الدمع سائلاً بصوت متحشرج: أهذه أنت شيرين؟!

- نعم أنا هي، وهل توجد أخرى غيري تناديك كازم؟!

اختلطت دموع فرحهما غير مصدقين بالتقائهما ثانية بعد ذلك الفراق الطويل والأيام البالغة في تعاستها، وأول سؤال بادر ذهنها: ما كان مصير جدتي؟! فأخبرها مدعياً الراحة على ملامحه:

رحلت روحها بسلام بعدما اطمأنت أنك بخير وفي مأمن من الشرور، موفراً عليها بؤس الاطلاع على حقيقة حال جدتها آنذاك وتراجع صحتها فاقدة رغبتها في العيش بعد حادثة موت حفيدتها المزعوم، منتقلة إلى جوار ربها بعد فترة وجيزة.

أستفاضا في سرد القصص التي واجهتهما والكثير من تفاصيل حياتيهما وعندها سألته شاخصة بنظرها على بنصر يده اليسرى: هل تزوجت يا كازم، أرى يدك خالية؟! حدق في عينيها وهلة وبنبرة صاحبها الأسى وخالطتها ابتسامة: لم أفكر بالزواج بعد، مخبئاً في صدره حسرة كبيرة وجرحاً عميقاً غائراً.

- وأنت ماذا عنك؟ لا أرى خاتماً في يدك! في نبرة مازحة أردف: أمعقول لم تجدي أحداً يقدر كل هذا الجمال؟

بنبرة المزاح الزائفة ذاتها أجابته وقد علت ملامحها سحابة حزن شفيف وظلال داكنة غشت عينيها: صراحة لم أحاول البحث.

لم تخبره أن خلف ذلك الجمال البهي تقبع روح مطفأة مشوهة تحجبها عن الأنظار، بعدما انعدمت ثقتها بالناس، وقد كبرت على خدعة ألواح الكاكاو التي حرمت على نفسها تذوقها منذ خروجها من ذلك السجن... يده السمراء المشعرة الضخمة اللاهثة تحت

ملابسي هي ذاتها من قدمت لي لوح الكاكاو كعربون لمرة أخرى ولهاث لا ينقطع... تزيح عن رأسها بقوة أي ذكرى تطرقه، لكن جسدها لا يستطيع نسيان ملمس تلك اليد النارية تُحرقه فيتصبب عرقاً واشمئزازاً... ظله القاتم المتضخم ما يبرح يستيقظ في أحلامي فأصحو مفزوعة مرتعبة، عيناه في الظلمة تلمع تراقباني، هسيس أنفاسه يخرق طبلة أذني، رائحته الكحولية المعتقة عالقة بأنفي مهما تعطرت، مدنسة سأبقى مهما اغتسلت...

أراد كاظم أن يقطع عليها سيل تيار الحزن الذي أربك ملامحها: عندي لك مفاجأة لم أخبرك بها من قبل، والآن وأمام الحضور أود الاعتراف بأنني وعلى مدى سنوات بحثت وبحثت عن آمر السجن الملعون، ومن شخص لآخر دلني على محل اقامته الجديد بعد هروبه عام ٢٠٠٣، آخذاً بثأرك، بل ثأرنا جميعاً، ثأرنا جميعاً ناظراً ناحية أمه التي شحبت سحنتها خشية عليه وتلعثم لسانها: يكفي يا ولدي، ما هذه الثرثرة؟

لم يصغ لها، مكملاً باصرار أكبر واندفاع أقوى: نعم أخذت بثأر الجميع منه، سأفشي كل شيء فلا مزيد من الأسرار، ولدي كاظم توقف، أصغى جميع الحاضرين وبضمنهم الكاتبة إلى كاظم

مترقبين بعيون مفتوحة متشككة، وأم تحاول ثنيه عن توريط نفسه، كنت قد تأكدت من عنوان البيت الذي يقطنه بعد مراقبة استمرت أكثر من أسبوع، لم أصدق عيني، أمعقول هو ذلك مدير السجن؟ وقد احدودب ظهره وترهل جلده، تلاشت شرارة عينيه المتقدة الصلفة خلف نظارة سميكة الإطار، بح صوته وتقهقر، بهندامه العادي العتيق لن يصدق أحد أنه كان في يوم يرتدي البزة الزيتونية وعلى كتفه ترقد نجمات ونسر، سخرت مما حل به مؤمناً أن دولاب حياته قد أرسى به إلى الأسفل.

تابعت تحركاته، أوقات خروجه المحدودة من بيته الصغير إلى الدكان عند ناصية الشارع، راقبته عن قرب، خطواته الضعيفة، البقعة الداكنة الجانبية بجرحها الغائر ما تبرح قائمة في وجهه العجوز، يديه الضخمتين وقد انكمشتا على عروق ناتئة زرق لم تقوَ على حمل أكياس البلاستيك عائداً في طريقه من الدكان، فاسرعت نحوه جامعاً الخضار الذي تدحرج منها، عارضاً عليه المساعدة في حمل بعضها وصولاً إلى باب بيته وإلحاحه على ضيافتي بالغداء معه.

بيته شاحب الإضاءة يثير مكامن الضيق في النفس، صامت كئيب، قليل الأثاث، بارد لا دفء فيه ولا ألفة، هواءه خدر ساكن، لا نافذة تفتح خلف ستائر ثقيلة داكنة، عرجنا على المطبخ وعندها تأكدت أن ما من امرأة في البيت، وفهمت من حديثه أنه وحده من بقي في العراق بعدما هاجر أولاده مخافة تسديد ديون والدهم الكثيرة برصاصة، كان متحفظاً ولم يتطرق إلى أية أمور شخصية مقتصراً في حديثه عن الأوضاع العامة والطقس... الوقح الدنيء نسي ماضيه... شاركته طعام الغداء البسيط على مائدة صغيرة يرتعش جالساً وهو يطبق على ملعقة تتعثر كل مرة في الوصول إلى فمه مثلما ترجرجت استكان الشاي في يده... يا الله لا تقل لي أن هذه عقوبته! ليست بالكافية... ليست بالكافية يا الله.

خرجت من بيته حاملاً معي من الضيق ما كدر صفو يقيني وثباتي على الثأر منه أو تركه ينال عقوبته بالعيش وحيداً ضالاً ككلب بلا أنيس يسأل عنه ويبدد شيئاً من وحشته في هذا العمر الرذيل، تأرجحت بين الفكرتين، أألوث يديّ بدمه النجس أم أدعه يواصل حياته البائسة النكدة عله يطلق المسدس في رأسه هذا الجبان؟! لكن هيهات يفعلها، هذا الجبان لن يفعلها وسيتمسك بعروة

الحياة حتى آخر لحظة... لن ألوث يدي به... من يأخذ بحق أمك وشيرين، زينب، ماجد الرضيع، والدكتورة إيمان وكل نساء السجن، ضحايا حفر الموت الرهيبة، وحقك أنت الآخر من يأخذ به؟!... هو الآن في قمة تعاسته وضعفه، شريداً متخفياً وقد أنكره أولاده... ولو، هذا لا يكفي، لا تتراجع بعد إذ وجدته، هذه فرصتك التي انتظرتها من سنين طويلة فلا تفرطها لأجل عاطفة شفقة لا يستحقها ذلك الحقير... سأدعه لله يقتص منه... جبان أنت، جبااااااااان لا فائدة فيك.

أمضيت أياماً مستغرقاً في صراع مؤلم مع نفسي وصوتها يحز روحي كل حين بسكين الانتقام التي شحذتها قبل أعوام بعيدة، فادعيت صدفة لقاؤه ثانية عند الدكان فما كان منه أن دعاني لمشاركته الغداء مرة أخرى لكني اعتذرت متذرعاً بكثرة مشاغلي، عجزت أن أكون معه تحت سقف واحد وظلال عتمة السجان يسوق شيرين إليه، فلا يغمض لي جفن حتى ترجع، متحاشياً لقاؤها في صباح اليوم التالي الذي تقضيه في الفراش مريضة مسلوبة الروح لا تسترد عافيتها إلا بعد حين، لتبقى نظرات الانكسار تؤطر عينيها الجميلتين مهما ادعت أنها بخير.

في كل مرة حاولت استدراجه وسؤاله عن عمله السابق كان يغير الموضوع بحنكة ودهاء ليسا بالغريبين عنه محافظاً على مسافة الأمان اللازمة في حديث الغرباء، تمنيت ولو لمرة واحدة أن يعترف بذنوبه في محاولة لإراحة ضميره والذي يبدو أنه قد مات قبله بزمن بعيد ولا بد له أن يلحق به هو الآخر، فارتديت (دشداشة) قديمة متلثماً بكوفية بيضاء مرقطة منتظراً خروجه إلى الدكان بعدما حفظت تقريباً مواعيد خروجه القليلة، متوكئاً حافة الطريق بعكازه يجر خطواته، تقدمت نحوه مباغتاً بسكينة غرزتها في جانب صدره الأيسر نفذت دون عناء في لحمه العجوز المهترئ وقفصه الهش، سقط أرضاً متكئاً عليّ فاستللت السكين قاطعاً عضوه الذكري، صاباً في أذنه سم كلماتي: هذه لأجل الطفلة شيرين، وكل نساء سجن نگرة السلمان.

نفرت عيناه من مقلتيه صدمة، فغر فاه ذعراً وألماً غير مصدق أن يلقى حتفه بهذه الطريقة على يد أحدٍ ضحاياه الذي لن يتذكره وإن أسعفه الوقت لكثرتهم. ابتعد كاظم عنه مسرعاً قبل أن يلمحه أحد تاركاً آمر السجن شلال عطا الله مترنحاً على الأرض شاحب الوجه، غارقاً في دمه ينازع، مرت الدقائق عليه طوال وعيناه

تستنجدان الطريق مبتهلاً حتى انخفض ضغطه وضاق نفسه على روحه المتلكئة الصعود.

شد اعتراف كاظم انتباه وأسماع الحاضرين، وفية لم تجد حيلة سوى لطم وجهها متأوهة ناحبة، كذلك شيرين احمر وجهها وبانت عروقه من هول المفاجأة ومن بين دموعها الغزيرة: لماذا خاطرت بحياتك لأجلي؟ لم أغفر له يوماً لكن ما فائدة تمريغ يدك بدمه الفاسد اللعين! متوجهة بسؤال غاضب نحو الكاتبة المطبقة على لسانها حيرة من أمرها وهزتها من كتفيها بشدة: أيرضيك ما فعله كازم؟ أنظري إلى أي حد أوصلنا خيالك المريض! بصوت تتعالى طبقته مرتعشة أردفت: لا أفهم ما مبرر قسوتك علينا؟ ألأجل روايتك الغبية دفعت بنا نحو هاوية الموت والتعذيب؟ أنظري إلي، ها أنا أمامك شابة جميلة لا تفلت عنها أنظار الرجال وعروضهم المتواصلة بالحب والزواج، ما عدت أرى فيهم سوى ذلك الآمر الخسيس، فأي ظلم افتريته علينا؟! لن نغفر لك، لن نغفر لك، أنت حتماً شيطانة وعقلك ممسوس، فلتذهبي إلى الجحيم الذي أوقدت ناره من سنين طويلة، اللعنة عليك يا نادية الابرو، اللعنة عليك، وأفلتتها من يديها بعد أن كادت تضربها.

وجده أحد المارة بعد حين، مسجى على الأرض بدمه وإلى جانبه سكين أرهبت المارة وحملتهم على الاتصال بالشرطة والإسعاف التي وصلت قبل دقائق قليلة من سيارة الشرطة، فحملوا الجثة وسط الغمغمة واستنكار بعضهم على قتل رجل مسن بهذه الطريقة الوحشية! يعيش وحيداً، لا يعرف عنه أهل الحي ولا المستأجر شيئاً.

السكينة مألوفة تباع مثيلاتها في أغلب المحلات الخاصة بأواني المطبخ ولا تحمل أية بصمة لصاحبها، وما من أحد في الشارع لمح الجريمة وقت حدوثها، وبعد التحقيق والمداولة قيدت ضد مجهول وأغلق الملف على أنه قضية ثأر وشرف، متفرساً في وجه الحضور، نعم يا سادة قيدت ضد مجهول ككثير من قضايا وأزمات هذا البلد، لكن ما يزال قلب ذلك المجهول معطوباً، كنت أظن أن روحي ستبرأ من وجعها فاتضح لي أنه ألم مزمن وشعور بالفراغ والضغينة موجع لا نهاية له.

قتله لم يخرجني من زنزانتي، ليتنا ما هربنا يا أمي، مستديراً بوجهه نحوها مستعطفاً كطفل، ليتنا رحلنا معهم، فالزنزانة ما تبرح تغلق على أحلامي، أنا يا كرام حطام رجل، حطام رجل

قهرته الحياة، مكفكفاً بطرف أصابعه دمعة ناوءته حتى نزلت، لكني لم ولن أندم على قتل ذلك النذل آخذاً بثأرك يا شيرين كما وعدتك ذات مرة.

***   ***   ***

سؤال طالما راودني: لماذا أكتب؟ ما الجدوى من تلك العوالم الغريبة التي تغزو مخيلتي ولا تمت لي بصلة، واستحضار أبطال لن ألتقيهم من قبل لأتفنن في تعقيد حياتهم؟! وأقسو عليهم في اختبارات صعبة؟! ماذا أريد أن أثبت لنفسي؟! لماذا أورثهم أحزاني وخيباتي، وأحملهم سداد ضريبة تجاربي الفاشلة وضعفي في مواجهة الواقع وكل عقدي النفسية وإحباطاتي الفكرية؟! أسئلة كثيرة لا جواب لها سوى المواصلة والمواصلة على الكتابة، والانغماس في نرجسية لا يفهمها سوى من هاموا مع خيالات لا تؤطر بعضاً من حدودها إلا الكلمات.

أحدق في وجوه تكبدت من المآسي كثيرها حتى تصل نادية الابرو لبعض من ذات مريضة متفسخة، ما ذنب كاظم أن يعيش أبد العمر شقياً تطارده الأرواح العالقة برمال صحراء السماوة، ما ذنبهم جميعاً؟ كي أقرر أنا مصيرهم؟ هل الكاتب رب شخوصه؟ فلماذا لم أكن رفيقة بهم رحيمة؟ أوليست الرحمة من سمات الربوبية!؟ لا أفهم من وهبنا الحق؟ أهي موهبة كما يدعون أم لوثة عقلية نولد بها ليتحمل وزرها أولئك المساكين؟!

عم الصمت على وقع كلمات كاظم واعترافه المؤثر حتى قطعه صوت خطوات كعب عال أحمر براق، تتخطى به الحضور واثقة، امرأة في مقتبل الثلاثين من عمرها بجمال مشذب وجسم مثير لافت، اعتلت المنصة على أنظار الأشهاد المحدقة في كل تفصيلة منها بعيون فضولية يشوب بعضها التبرم وأخرى الانجذاب لتلك المرأة وشذى عطرها الفرنسي الأخاذ، وقفت ملء حواسها أمامهم وبابتسامة مجاملة زادت من حضورها شدة واكتساحاً قالت: لا أظن أنكم تعرفونني... أنا بنت القمر، سرت همهمة تشجيع مؤكدة على أنها أحلى من القمر ذاته، فابتسمت شاكرة، لكن هذه السيدة وحدها تعرف من أكون، مشيرة إلى الكاتبة المطرقة برأسها

خذلاناً، هل تذكرتني؟ أم لا متسع في ذاكرتك لشخوصك الثانويين الذين تزجين بهم إلى أغوار قصصك المريعة؟

أنا يا سادتي الفتاة التي ألقمتها هذه السيدة الجبارة فم الزمن الجائع، فلاكت جسدي أصناف من الوحوش البشرية باصقة به بعد زوال طعمه ورغبتها، بدءً لم أفهم لعبتها جيداً على أمل أنها ستنقذني بعد حين من المأزق الذي وضعتني فيه، لكنها أبداً لم تفعل بل تجاوزت الحد في تطرفها وخيالها المقرف بقتل منقذتي الخالة هناء الخصيب بسكتة قلبية بعدما أشقت حياتها وأرهقتها بالأزمات والصراعات النفسية الحادة من جلد مستمر للذات، مع قصة حب هي طرفها الخاسر منذ البداية، عندما جرتها إلى براثن حب مجنون غير متكافئ لابن الجيران الذي ظل ناكراً متجاهلاً له حتى غادر الحياة فانطفأت بعده جذوتها وبات أسمى أهدافها العناية بولديه الصغيرين، أي طريق وعر وقدر بائس قدرته لتلك المسكينة التي قضت سنين عمرها الخمسين تكابد يومياً تلك الخسارات ولظى ذكريات لا ترحم!؟

يا سادة لقد نجوت رغماً عنها، لم أرجع إلى العراق محملة في تابوت مثلما خططت حين شرعت ببث تلك المخاوف والظنون إلى

قلب الخالة هناء حتى انهكتها، نجوت رغماً عنك يا نادية الابرو، قاسيت نعم، ونمت على بطن فارغة ليالي، بعت جسدي مقابل رغيف حيث أرغمتني على ذلك، لكني سبقتك بخطوة وإن تراجعت معنوياتي ودب المرض إلى روحي وكدت أصبو إلى وسوستك يا ملعونة وأقدم على الانتحار، لولا أن القدر بعث لي فرصة أخرى رامياً بطوق نجاته نحوي في منأى عن خبثك ومخططاتك، فسافرت إلى دبي وهناك فتحت أمامي كل الأبواب المغلقة.

لم آتِ اليوم طلباً في الثأر لي ، فكما ترون أنا راضية عن نفسي وواثقة أن الله عفو يحب العفو عن التائبين، بل للمسكينة هناء التي سقطت صريعة شعورها المتفاقم بالذنب في حصاد ثمار لم تنضج بعد تحت ضوئك البرتقالي اللعين، وللأطفال الذين تنازعت أطرافهم الكلاب والقطط في مكب النفايات، يا الله كم أنت بشعة **؟!** أنت الأكثر شراً وسوءً بيننا جميعاً وإن كثرت خطايانا، مكفكفة دموعها الممتزجة مع كحلها، نازلة عن المنصة مع كلماتها الغاصة بالغضب على نادية الابرو والمتوعدة بنيل جزائها العادل.

آآآه... آآه لابد أنني في كابوس! ما لي لا أصحو منه؟ تلك العيون المحتشدة حولي بنظرات الاتهام والرفض، وأسئلة ليس لها

من جواب عندي سوى الصمت البليد الذي يثير كاظم ويفقده عقله قائلاً: أنت يا نادية المتبجحة بذكائك وحنكتك، ابتسامة صفراء ماكرة خطت حدودها على ملامحه، لا تعرفين أننا قد تسللنا إلى حياتك من حيث لا تدركين، شنفت الكاتبة أذنيها مقطبة حاجبيها، نعم من حيث لا تدركين، الابتسامة الصفراء تزداد لوناً وخبثاً، ابنتك البكر نحن من دبرنا لها تلك العلاقة مع ذلك الشاب المسيحي، فغرت فاها حنقاً وانقباضاً غير مصدقة، لا تستغربي لست وحدك من يخطط ويصنع الحبكات، لقد دفعت بوسام ابن صاحب الشركة السياحية التي أعمل في فرعها بأربيل نحو ابنتك، وباعتباري الموظف المسؤول عن جمع أسماء المسافرين مع شركتنا بمختلف فروعها في العراق لمحت اسمك بالصدفة، لم أكن واثقاً من هويتك ولكن بعد السؤال والبحث في السيد گوگل ومقارنة صورك مع صورة الجواز تأكدت من غريمتي، عندها تحايلت عليه بالترغيب تارة والإلحاح تارة أخرى حتى وافق على مرافقة الگروب المسافر إلى تركيا، ولا يخفى عليك جمال وجاذبية ابنتك، الأمر الذي شجعني وسهل من مهمتي مع وسام في لفت انتباهه لها وإشعال فتيل الانجذاب بينهما خلال السفرة، حتى عاد كلاهما بقلب يخفق بالحب والشوق إلى الآخر، عندها فقط تنحيت جانباً لأستمتع بمشاهدة تطورات أحداث القصة التي كُتبت صفحاتها دونك

وصولاً إلى هروبهما من البيت والزواج بعيداً عن الشرع والأعراف والقوانين.

ابنتك هالة على النقيض من طلتك غادة التي أثقلت روحها بحب ممنوع محرم لذلك الفرنسي جاك، وحنين ملوع إلى الأهل والوطن فدفنتها بالحياء، ما أقساك من امرأة! كان لا بد أن تذوقي من الكأس ذاته وتذرفي من الدمع غزيره، كما فعلت وتفعل السيدة غادة التي تجلس أمامك كتمثال من شمع توقف نبض قلبه في اللحظة التي أقلتها الطائرة العائدة بها إلى الوطن مغادرة وطن القلب ومسقطه، حاولت السيدة غادة الاعتراض على بعض ما قاله والتحفظ على جانب من خصوصياتها لا ترغب أن يسمعه الآخرون، لكنه رفع يده نحوها كعلامة للامتثال إليه وعدم مقاطعته.

موتي بغيضك سيدتي الكاتبة، أنا من رتب لهما سبيل الهرب وساعدهما في تأثيث بيت الزوجية الذي لم تلمس قدامك عتبته، وعلى يدي هذه حملت حفيدتك داعياً الله أن لا يسنح لك بفرصة احتضانها وشم رائحتها العذبة، غير شاعر هو أو باقي الحضور بالشفقة أو الرحمة على انهيارها ودموعها المتحدرة إثر ما سمعته مناشدة إياه متوسلة في إعطائها عنوان ابنتها.

انبعث صوت من بين الحضور على حين غرة، فالتفت الجميع نحوها، بقامة شامخة واثقة توجهت نحو المنصة، ثوبها الشيفون الأسود الأنيق، تسريحة شعرها المبالغ فيها نوعا ما مع وجهها المتبرج استعداداً لحفلة، سرى لغط وسؤال عن هوية المتحدثة وبين مصدق ومكذب لذلك، حدقت في الوجوه متجاهلة الكاتبة القابعة على دكتها والأقل دهشة بينهم، قائلة بصوت رخيم تشوبه بحة: نعم أنا هي، المغنية غفران، فعلا التصفيق والهتاف وتمتم بعضهم بواحدة من أغانيها المشهورة.

أغلبهم لم يفهم سر وجودها بينهم، مع توقع بعضهم في مداهنة للغباء أنها ضمن منهاج استراحة هذه الجلسة الطويلة الحافلة بالتشظيات والاعترافات، إصغاء أرجوكم، من فضلكم أصغوا إليّ، قاطعها بعضهم مطالباً سماع الأغنية التي ما تفتأ تغنيها في معظم حفلاتها نزولاً عند طلب الجمهور، فبدأوا بترديدها كنوع من الاستباق والتشجيع لمطربتهم التي لاحت على ثغرها ابتسامة هادئة منصاعة إلى رغبتهم مؤدية بصوتها الرخيم دون فرقتها الموسيقية قصيدة الشاعر الكبير مظفر النواب:

مو حزن لكن حزين

مثل ما تنگطع جوا المطر
شدة ياسمين
مو حزن لكن حزين
مثل صندوق العرس ينباع خردة عشگ من تمضي السنين!
مو حزن لكن حزين
مثل بلبل گعد متأخر
لگى البستان كلها بلايه تين
مو حزن... لا مو حزن
لكن أحبك من كنت يا أسمر جنين ...

تعالى التصفيق والشدو، في دقائق غاب عن بالهم ما يجمعهم هنا في هذا المكان وكل غايتهم الاستماع إلى المغنية المشهورة في أداء عفوي خالص تفاعلوا معه وبالكاد استطاع كاظم أن يميل بدفة الجلسة ملتمساً الهدوء والاصغاء لحديث المغنية التي تنحنحت وبنظرات شزرة رمت الكاتبة التي التزمت الصمت كدفاع لا تجدِ غيره سبيلاً، قائلة: أنا غفران أو غيلان أتذكرينني يا مبدعة، دققي في صنيعك المشوه، من أنا؟! بالله عليك قولي من أنا؟! أقف الآن أمامكم ولا أعرف حقيقة من أكون، في الماضي كنت أظن أنني

غفران فركبت الصعب متحدية كل العوائق والصعوبات كي أدرك غفران الحبيسة داخل جسد غيلان، لكن أهذه غفران التي بعثتها في روحي! أنظري جيداً، هيا حدقي في وجهي، مقتربة منها في انفعال كبير طغى على ملامحها، أهذه غفران التي أردتها؟ أنظري، هيا أخبريني أهذه هي؟! لِمَ لم تخبريني أن النتيجة ستكون مثيرة للشفقة كهذه، مشيرة إلى نفسها، أتستحق غفران الماثلة أمامك كل ذلك العذاب والشقاء، الغربة والنبذ؟ هيا أجيبي ما بالك صامتة؟

تنحنحت الكاتبة وبعد تردد وفتور قالت:

- لم أكن وحدي، أنت شريكة مثلي تماماً، جميعكم معي شركاء فيما آلت إليه حياتكم، جميعكم اختار ما ظنه مناسباً له حتى أني أرغمت في أحيان كثيرة على مجاراة رغباتكم واتباعها، وأتحداكم جميعاً أن تنكروا ذلك.
- أنت الشيطان الذي خرب حياتنا داساً السم في العسل، عليك اللعنة لقد خدعتني، أوهمتني بتلك الإشكالية التي بذرتها في عقلي ونمت حتى بت لا أطيق الجسد الذي أسكنه، أما سألك عقلك المريض عن مصير غفران التي شقت طريقها على

رفاة غيلان؟! أنظري إلي، حدقي ملياً في وجهي، أهذا وجه امرأة طبيعية؟ ليس من شيء في مكانه، جلد استنفد الشد، خدود ليس فيها متسع للنفخ، شفاه كاذبة متصلبة، عيون قطة مدعية، شعر مستعار، رموش زائفة، لا شيء طبيعي كله تصنيع، أياد كثيرة مرت على هذا الوجه مدنسة عفوية الجسد بمشرط يقص هنا ويلصق هناك في سباق مرير مع زمن ما تبرح أن تطالني تصدعاته مهما سابقته.

أنا الآن يا سيدتي الكاتبة الفاضلة مسخ هائج الروح وقد ضيعت غفران إلى الأبد مثلما ضاع مني قبلها غيلان، لست أعرف من أنا؟ ومن أكون؟! فراغ تلك الأسئلة يسكنني دون جواب، حدقي جيداً في الدمية البشعة التي صنعتها ومضيت.

لا تظني وهلة واحدة أني قد تغاضيت عما سببته لي، قهقهة مجنونة تصدر من فم مأزوم بالخيوط الساندة، ولدك المدلل دفع ثمن أخطائك، قدحت عينا الكاتبة رعباً، لا تنظري إليّ هكذا، نعم ولدك يدفع الثمن في غربته وتمزق روحه، هو الآخر أصبح ضائعاً بامتياز، لا يطيق شيئاً ولا يركن إلى أمر، أهمل موسيقاه فطردته الفرق بعد وثوقها

من إدمانه وحالته المستشرية في اللحاق بعجوز متصابية تقذف به كالكرة المطاطية عائداً إليها بلا حول أو قوة، المسكين تخر على رأسه جرار أمه المثقوبة، حينما عرفت بالصدفة أنه ولدك لم أضيع الفرصة لاقتناصه وجره إلى طريق اللاعودة.

انتفضت الكاتبة من مكانها مهاجمة بعنف المطربة شادة إياها من شعرها الذي جاء في يدها صارخة: أيتها الحقيرة، ما لك وابني؟! ولم يعتقها من يد نادية سوى كاظم ونفر من الحضور الذي ازدرى سلوك الكاتبة راداً إياها إلى حيث تجلس مذهولة وقد اغرورقت عيناها بالدموع وتشنجت ملامح وجهها، قابضة على باروكة شعر غفران دون شعور.

حاولت غفران ترتيب هيأتها ووقفتها على المنصة مبادرة بضحكة وقحة مستخفة مردفة: كان منهاراً حزيناً، جاء طالباً لفرصة عمل في فرقتي فنال إعجابي عزفه المتقن وحركة أصابعه الماهرة على الأوتار، للحظة خلته غيلان الذي أعلنت وفاته قبل ربع قرن وأكثر، لكن لم تكن براعته التي أهلته للقبول بل اسم والدته الذي لمحته في هوية أحواله المدنية، مدركة أن الدنيا تدور

وما زرعته في قلبي من أسى وهموم سيجنيها ولدك، فدفعت بأحدهم نحوه في استمالة بطيئة حذرة نحو المخدرات التي أجهزت على قواه لكنه نجى من انتحار أخفق في التخطيط له ولم ينجُ من تعلقه بامرأة في ضعف عمره أطلقتها عليه فكان أن هوى في أحضانها بسرعة وجيزة فاقت حدسي طلباً في حنان وحب لا تجيد إغداقه سوى الأمهات ولحسن الحظ أنت لم تكوني منهن.

سيدتي لا تشزريني بهذا الشكل وكأني مجرمة هههههههه، أنا فقط سرت به على هدى خطتك التي رسمتها لي ذات مرة، مستثمرة كل الظروف التي جعلت منه إنساناً محطماً فاقداً للرغبة في العيش ويائساً في الحب للمرة الثانية حين هجرته حبيبته العجوز بعدما تقاضت ثمن دورها الذي أتقنته بإحكام، هو الآن شريد لا مأوى له تتقاذفه الفرق الموسيقية بعدما فقدت أعصاب يديه مرونتها وتلاشى فيض موهبته ورهافة إحساسه الموسيقي، مدهش للغاية أن يموت الجمال ملاقياً حتفه أمامك، فاشربي سيدتي الكاتبة من الكأس ذاته هههههههه.

ساد المكان صمت على إثر نحيب وبكاء الكاتبة متوسلة المغنية غفران أن تدلها على مكان ولدها قبل فوات الأوان، الأوان قد فات يا سيدتي مُذ كبرت الشكوك في رأسي وفقدت هويتي وصدق إحساسي في من أكون أنا؟ صدقيني لا أزال أجهل من أنا، غفران أم غيلان؟!

لم أكن يوماً راضية بغيلان ولا أتجاوب اليوم كثيراً مع غفران، اللعنة عليك، جعلتني مسخاً مسخاً، تقافز الدمع الأسود من عينيها قبل كبح جماحه وهي تقول: لا تحاولي دموعك لن تثير شفقتي، ولن أخبرك عن مكانه مهما استعطفتني، ونزلت إلى مسطبتها وسط صمتهم وعيونهم الشاهرة نحوها.

أخذ كاظم مكانه على المنصة وبملامحه المنقبضة التي تخللتها ابتسامة صغيرة بانت على طرف فمه حين قال بنبرة واثقة منتصرة: ما دمنا في طقوس اعتراف وكشف النقاب عن الحقائق أود الاعتراف ثانية لكاتبتنا الغالية وأمنا الحنون، بأني أنا أيضاً من دبر حادث الاصطدام لأخيك شهاب، فتعالت غمغمة الحضور، وشهقة فزع من نادية، لكنه أردف بنبرة حازمة ملتمساً الهدوء، نعم يا سيدات ويا سادة أنا من اتفق مع أحدهم لتنفيذ ذلك، وكان أن

جاء الحادث تماماً كما خططت، أقعده على الكرسي المدولب طوال حياته، أخيكم الوريث لاسم العائلة وكل هذه الترهات الاجتماعية، فلطمت نادية وجهها غضباً مجهشة في البكاء والعويل، نعم لست وحدك من يئد الأحلام راقصاً على مثواها، لقد أخذت بثأرك يا أمين، ناظراً نحوه بعين الاحترام والحب، ليس عليك أن تكافح وحدك آلام الليل وكوابيسه، أخوها يقاسي الأمر ذاته، وسيبقى سجين كرسيه مثلما حكمت عليك به.

أطرق أمين برأسه متفاجئاً، كذلك وبخته أمه وفية بنظرات وكلمات معاتبة شديدة الوقع فقاطعها: أرجوكم لا تدعوا النبل والرحمة، أنا فقط أكيل لها من غلتها وحصاد يديها، أنظروا إلى أنفسكم يا سادة، ما أنتم سوى حطام خيالها السقيم، هجرتكم بعد إرضاء غرورها ككاتبة لتنسانا كأي قارئ بعد وصوله الخاتمة، فلا تغرنكم اليوم بدموعها، أين كانت من دموعنا؟ من عذاباتنا التي صاغت مفرداتها بأعصاب باردة وتصميم قاس خبيث؟! أرجوكم لا تدعوها تحتال عليكم ثانية، وتسير حياتكم كما السابق، لقد تحررنا جميعاً من سلطة خيالها وتبعية تلك القصص والظروف المشؤومة التي قيدتنا بها، يا سيدتي قد كسرنا الطوق، وحطمنا

أغلال الرب الذي زعمته علينا، أحرار، أحرار نحن، بصوت حماسي عال هتف الجميع أحرار... أحرار... أحرار، فلتسقط نادية الابرو، فلتسقط....

من مسطبتها المركونة جانب المنصة، وقد تصلب ظهرها من الجلوس، قالت بحماس وصدق رغم معنوياتها المتهالكة: نعم كونوا أحراراً، لكن قبلها تحرروا من مخاوفكم وجميع أحقادكم و... قاطع كاظم خطبتها المؤطرة بنبرة حانية متفهمة بقهقهة ساخرة وكلمات تطاير رذاذها: كفاك ادعاءً، لقد تحدثت كثيراً وعليك الآن الاستماع لنا فقط دون أي تعليقات أو استنزاف مبررات باتت غبية، محدقاً بغضب نحوها، لاجماً رغبتها في استعطافهم وتفهم وجهة نظرها.

*** *** ***

هل أجلس في المكان الخاطئ؟ لماذا أنا في قفص الاتهام؟ أهؤلاء جميعهم ضحاياي؟ ماذا صنعت يا ألهي! هل أخطأت بحق كل أولئك؟! بوجوه مستنفرة وعيون تطلق شرراً يواصلون التذمر ورفع شكواهم إلى محاميهم كاظم، يا الله كم يطول حسابي معهم؟ لا أزال أظن أن ما يجري كابوس وسأصحو منه في أي لحظة، ولا أصحو! أي بشاعة صنعت! لا أصدق أنني وحدي خلف تلك المآسي!

ينقضي الوقت المستقطع بطلب من كاظم الذي يلزم الجميع الجلوس والهدوء، الشمس تتقارب وتتباعد في سقوط ظلها، الأقدام تراوح في مكانها وقد تسرب الملل والحر إلى الأجواء بعد وجبة طعام خفيفة رفضت نادية الابرو مشاركتهم بها كنوع من

الاحتجاج أو النرجسية البليدة رغم جوعها وعرض وفية الصادق عليها بتناول القليل... يا الله هذه المرأة غريبة بلطفها وكرم خلقها، ليس للحقد مكان في قلبها، والأدهى أنها تنظر إليّ بعين الرأفة والرثاء! أأنا مثيرة للشفقة إلى هذا الحد أم مجذوبة مريضة؟! أي كابوس أعيشه!؟... في أربيل سيتغير مجرى حياتك!

يناديِ كاظم على أسماء بعضهم أو مستعرضاً دعواهم بشكل موجز حتى قاطعه أحدهم كان يتخذ من أحد المساطب الخلفية مكانه، وبصوت رجولي حاسم يسبق خطواته الواسعة نحو المنصة، ملقياً نظراته المتوجسة نحو الكاتبة التي انتابتها رعدة سرت في أطرافها مصدومة: أهذا أنت أيها السارق؟ ما الذي أتى بك إلى هنا أنت الآخر؟! ألم يكفك سرقة نصوصي؟! لاحت ابتسامة باهتة على طرف فمه، وومضت لمعة خاطفة في عينيه العسليتين فكادت تدرك هويته لولا أنها هزت رأسها غير مصدقة أن يكون هو.

نعم أنا هو راغب الساير "السيد گري"، قطبت جبينها غير مصدقة، أنا هو بشحمه ولحمه، راغب، الذي لم يرغب بحياته بعد

أن أوكلته جميع مخاوفك وطبيعتك المتطرفة المتطلبة، وهمك العتيق في الحب المثالي الخالص دافعة بي كالمهووس للبحث عنه، يا سيدتي أستطيع القول لك الآن بعد تجاربي العديدة، أن الحب الذي نشدته وحرضتنا جميعاً عليه غير موجود إلا في مخيلتك، ما أقساك من مخلوقة؟ وأنت تجرينا نحو الهاوية والسقوط في وهم ذلك الحب الذي أفسد حياتنا إلى الأبد، الدكتورة إيمان رفضت العيش حين ظنت أن خطيبها قد تخلى عنها، المرأة الشيوعية التي آثرت البقاء في السجن والتعذيب حد الجنون دون البوح باسم حبيبها، هناء الخصيب وكيف أفنت عمرها لأجل حب لم تذق منه إلا المرارة والأسى حتى توقف قلبها مثقلاً به، غفران التي غيرت جسدها بدواعٍ نفسية كثيرة كان الحب أحد أسبابها، أنا السيد گري - كما طاب لك وصفي- بسببك لم أعرف كيف يكون الشعور الحقيقي بالحب، مفوتاً على نفسي فرصة اختبار تلك الأحاسيس الجميلة مع قداستي الذهبية مكتفياً بعد ضياعها بجمع أوصافها في كل من قابلتهن، منهكاً روحي التي أدمنت البحث والبحث دون غاية واضحة، وها أنا اليوم ممزق الوجدان أتخبط لا يسعفني سوى الدخول والخروج من علاقة إلى أخرى طلباً في الحب حد شرائي له بالمال من قلب الصبية التي تزوجتها لأكتشف أنه ليس

أكثر من تبادل منفعة ومتطلبات حياة مرفهة دفعت هي ثمنها من شبابها وتظاهرها بالحب الذي كشر عن أنيابه بعد شهرين من الزواج.

سيدتي الكاتبة أعدك مخلصاً بأنك لن تعودي قادرة على الكتابة، دوماً سأسبقك بخطوة، سأسرق بنات أفكارك جميعها، وأدونها قبلك، سأكون خصمك اللدود الذي لن تملكي الدليل على إدانته أو التصدي له، وأظنها العقوبة المثالية لشخص أناني معتد بنفسه مغرور مثلك، أتعلمين أن خوفك من الألم والهزيمة قد منعاك من الوقوع في الحب، والاستسلام لسطوته متشبثة بمنطق العقل والركون إلى حياة هادئة مريحة خالية من مكابدات الحب وقسوته! هل تدركين ما مشكلتك؟ حملق في وجهها بانتظار إجابتها أو تظاهر بذلك، فأردف: مشكلتك أنك متخاذلة للغاية، تفضلين عيش الحياة بأسلوب آمن رغم حبك للمغامرة، البقاء على الضفة والبحر يستوطنك.

كاتبتكم تتمنى لو كانت ليلى زمانها لكنها أبداً لن تصطلي بنار حبها لقيس وتقاسي عذاب اللوعة والفراق، أنت يا سيدتي امرأة من وهم، تدعين بحثك عن الحقيقة المطلقة لكنك الأكثر هرباً وخشية

منها، امرأة التناقضات أنت، الظل وضوؤه، الصدق وكذبه الأبيض، نعومة الجوري وقسوة أشواكه، الإخلاص ومفترق طرقه الملتوية الشائكة، الإيمان ووجوه شكه الكثيرة.

أقبل نحوي بوردته الجورية الحمراء القانية في طريق عودتي من المدرسة، وسيماً يكبرني بعامين حل وأهله في الطرف البعيد لمنطقتنا مما اضطرني إلى الوقوف بانتظاره قرب باب بيتنا في ادعاء يومي بانشغالي وعدم ملاحظتي له إثناء مروره، لم أكن أفهم ما يجري معي، أنتظره ولا أراه، أبغض ابتسامته الماكرة ولا أفكر بسواها، يمشي خلفي على بعد خطوات وأولاد الجيران ولا تستسيغ أذني إلا وقع خطواته، ألقينا مواعيد ذهابنا وإيابنا على محمل الصدفة البريئة، فلم تخلف لنا موعداً وبات طريق الذهاب إلى المدرسة الجانب الأهم من المدرسة ذاتها والدروس، فانشغلت في التفكير به بدلاً عن مسائل الجبر ونظريات الهندسة المحكمة النتائج المذيلة بـ و. ه. م، ولم أعرف ما المطلوب مني، أأقبل الوردة أم أتجاهله؟!

في لحظات معدودة كان عليّ الإقرار لصاحب الوردة بالحب، فحملتها دون الالتفات نحوه لكني لمحت فمه مشرعاً بابتسامة عريضة شابها ثقة المنتصر وخيلائه، دفنتها بين الصفحات البيض لأحد دفاتري على أسلوب بعض الطالبات وزهوهن أمامنا بورود يابسة بهت لونها محتضراً بين الأوراق، تركت وردتي مخنوقة تنازع وفاتني الإحساس بالزهو، وبعد ساعات أخذتها إلى أمي في نزق مراهقة شاكية لها فعل أمير، فما كان منها أن ذهبت بالوردة الموشكة على الموت إلى أهلها طالبة من ولدهم ألا يعترض طريق ابنتها الصغيرة على تبادل الورود الحمراء وكل تلك الوعود الغبية بالحب الأبدي.

في صباح اليوم التالي تأخرت في الذهاب إلى المدرسة منتظرة أمير الذي لم يزامن صدفة مروره بدقائق وقوفي المفتعل عند الباب، فذهبت إلى المدرسة بمزاج كدر غريب مقنعة نفسي على مصادفته في طريق العودة الذي بدا موحشاً دونه، فدخلت إلى البيت بوجه محتقن يرشح غضباً لم ينشف حتى الصباح الثاني عندما فوتَ صدفة لقائي رغم انتظاري له أكثر من المعتاد، كذلك

عند العودة وحتى آخر الخطوات نحو البيت لم أفقد الأمل في لمحه ولو من بعيد.

مر أسبوع بأيامه السبعة التي حرصت على عدها، تقلبت فيها على جمر الانتظار، متلفتة كالبلهاء خلفي إثر أي صوت أو خطوة، بات الطريق إلى المدرسة العقوبة الأقسى وأنا أبحث عن شبحه بين الطلاب، زادت وتيرة عصبيتي فنسب أهلي ذلك إلى المراهقة، انتهى الأسبوع الثاني على الحال ذاته، لكن نفسيتي تأزمت أكثر ودخلت في طور كآبة، ومشاعر لا قبل لي على احتمالها أو تفسيرها، لم أفكر حينها بالحب، فما كنت من أنصار الرسائل المذيلة بقلب يخترقه سهم وكلمات استنفدت إحساسها، لكن إحساسي بغيابه أصبح منغصاً، فكففت عن الاهتمام بمظهري وتسريحة شعري الذي كنت أحار في تصفيفه كل يوم بغية إثارة إعجابه.

انشغلت بالدراسة ونشاطات أخرى جانبية حتى مرت السنة الدراسية تاركة أمير كذكرى صغيرة أقفلت عليها باب المراهقة، ساخرة من نفسي على تلك اللحظات المشحونة بالخجل، والمشبوبة بزهو المراهقات، وما يصنعه فيهن اهتمام الصبيان وغزلهم

البريء، حتى لمحته ذات مرة من بعيد بعد عامين، كان قد أصبح أكثر وسامة، اشتد عوده وبانت عليه ملامح الشباب، شارب خفيف وذقن مدبب منحوت، تصفيفة شعر جذابة تتناغم مع هيئته الجديدة اللافتة للانتباه، اقترب مني قليلاً، فسرى ضعف في أوصالي وخفق قلبي سريعاً ولا أدري أثمة احمرار قد علا وجنتيّ من سخونتهما، أطل في عيني بابتسامة عذبة أخذها معه متجاوزاً إياي مع رفاقه.

لم ألمحه ثانية ولم أستطع تفسير نظرته، أكانت ولهاً وشوقاً؟!... بالطبع لا، لا تكوني سخيفة... أم مداهنة لذكريات المراهقة الساخرة؟! هل فعلاً نسيني تماماً؟... ومن تكونين حتى يتذكرك بعد هذه المدة!... خلته جاء يتفقدني، لكني أدركت أن الصدفة وحدها هذه المرة من صنعت ذلك اللقاء الخاطف الذي سبب لي الإحباط مجيباً عن سؤال انتابني كثيراً، فشددت ظهري رافعة برأسي وأكملت السير حابسة على دموعي التي انهمرت على وسادتي قبل أن أغط في النوم.

في صباح اليوم التالي قررت فيه نسيانه وطي صفحته إلى الأبد... هههه طي صفحة من الأساس ما كانت مفتوحة، ما بك

يا فتاة! أعجب لأمرك! ولا أفهم كنه مشاعرك تجاه ذلك الفتى الذي اشتكيته لأمك، أنت وحدك من صنع ذلك الجدار، فلماذا اليوم تتذمرين من تجاهله لك؟ غريبة أنت يا نادية! وأظن أن راغب محق في كل ما قاله، أنت الصفة ونقيضها لم تتغيري أبداً، لم تتغيري.

فاقت من شرودها على وقع كلمات السيد گري الأخيرة ونبرته الحادة حين قال بابتسامة مناكفة طغت على أساريره: لم آتِ اليوم هنا كي أعرض شكواي ساخطاً من قسوتك وظلمك كما الجميع، أنا يا سيدتي الكاتبة قد اقتصصت بعض حقي منك في نسخ كل شاردة وواردة تحط على عقلك، تفضلي أنظري، وسلمها مسودة أوراق تحمل صفحتها الأولى اسم "محاكمة نادية الابرو" ، فأخذت تقلب باندهاش واستفهام كبير: كيف فعلت ذلك؟... كيف؟ لا أكاد أصدق!!

- لِمَ العجب سيدتي؟ أخبرتك أني سأسبقك دوماً، وها أنت اليوم تعيشين ما فكرت فيه ذات مرة ورغبت في كتابته كرواية لولا ترددك من هذه الفكرة وعدم نضجها في خيالك، إقرئي... ستصلين فيها إلى هذا المكان مع فارق

مهم أني أنا من بلور التفاصيل وألب الجميع هنا للانتقام منك، تستطيعين القول أني مايسترو هذه المحاكمة التي يديرها كاظم مدفوعاً بسخط وحقد كبير داومتِ على سقايته في روح ووجدان صبي تساق أمه على مرأى منه إليهم لتعود بعد حين غاصة بدموعها وآثارهم اللعينة من كدمات ورائحة نتنة خليط من الخمر والسجائر والعرق، ما أبشعك من امرأة؟ وقد حولت ذاك الصغير إلى مسخ يمقت فحولته مزدرياً منها، لا يحمل في قلبه سوى البغض والثأر، يخشى الحب والزواج، هرب من شهد رغم إعجابه بها، وحين التقى ثانية بشيرين ظل عاجزاً عن مبادلتها الحب مكتفياً بتلك المشاعر المبهمة المتناقضة البريئة التي ربطتهما صغاراً، غير قادر على تجاوز ذكرياته المؤلمة، أنظري إليه أصبح آلة وقودها الغضب والثأر.

-

اعتلى كاظم المنصة وبصوت تشوبه بهجة النصر رغم كلام راغب حوله واستنتاجاته التي باتت على بينة من الجميع بضمنهم شيرين التي بانت على ملامحها الخيبة والضيق، قال: وردني تواً أيها السيدات والسادة اتصال من أحد المعارف العاملين في

الشرطة يؤكد فيه بأن البحث عن كاتبتنا العظيمة قد توقف، وأن الشرطة أضافت اسمها إلى سجل المفقودين بعدما أعلمت شقيقتيها اللتين عادتا إلى البصرة دونها على أمل إيجادها بالقبض على مختطفيها الذين لم يبادروا بطلب الفدية حتى الآن، علت هتافات الحضور على وقع تصريحه الذي كان بمثابة القشة التي كسرت آمال نادية في إنقاذها والفكاك من أولئك المجانين، فطأطأت رأسها خنوعاً وانهزاماً أمام عيون تبقى غائمة مهما أمطرت.

وقف كاظم بضعة دقائق قبل أن يطالب الحضور بالهدوء لإكمال الجلسة باستدعاء أحد الضحايا منادياً باسم مريم العايد، فالتفت الجميع نحو صوت دبيب غريب حتى أدركوا نملة تتزعم قيادة سرب من النمل اقترب من المنصة مسوراً بينما ارتقتها هي أمام دهشة الحضور الكبيرة وأفواههم الفاغرة، نعم يا سادة لا يأخذ بكم العجب وهدوء رجاء حتى يتسنى لمريم عرض شكواها أمامكم، لكن أصواتهم المنددة تعالت استياء من تلك الكاتبة الشريرة فحذفها بعضهم بالطماطم، هدوء، هدوء رجاء سيداتي وسادتي الحضور الكريم، بصوته المنضبط الرزين أوقف الهرج بينهم داعياً مريم التي شعرت بالخجل الشديد والضيق من حشرها

داخل جسد نملة في سجن لا تعرف متى الفكاك منه، قالت موجهة كلامها ذا النبرة الجافة الحاقدة نحو الكاتبة: لم أعترض على فكرة روايتك متغاضية عن أن أكون المرأة غير المرغوب فيها من قبل زوجها الذي عاشر الكثيرات تحت مسمى زواج يطاله التشكيك واللغط الكثير، لكن هل تدركين ما قاسيته وأنا أقرأ مذكراته التي سطر فيها مغامراته اللعينة مع نسوة من كل صنف؟! هل تدركين معنى ألمي وعذاباتي وأنا أشهد دلائل خياناته؟! هيا أجيبي... أين ذهب لسانك؟ لماذا أنت صامتة؟ وقد أفردت له الصفحات الطوال من روايتك يصول ويجول فيها كيفما يشاء، يجرب هذه ويحب تلك في قصص تنتهي دوماً بالسرير، وكي تبرري سوء أفعاله رحت تخوضين في ماضيه وطفولته كنوع من استجلاب تعاطف القارئ معه وانجذابه إليه، وفي المقابل أنا... أنا مريم، الزوجة النكدية المطاردة لزوجها والناقمة من حياتها معه، بالله عليك ألم تكن قسمة ضيزى؟!

حاول السيد گري التدخل والرد على زوجته النملة مريم مفنداً من مكانه بعض ما تفوهت به لكن كاظم مانع ذلك رافضاً أي مقاطعة من قبله وأن من حق المدعية الإدلاء بشهادتها كالآخرين،

فاستأنفت مريم غير آبهة بتعليقه موجهة كلامها على وجه الخصوص إلى الكاتبة الحاذقة التي أودعتها في جسد نملة غير مبالية بتفاصيل عديدة واجهتها مريم وحدها قبل اكتسابها خبرات النمل ومواءمة العيش معهم، موبخة الكاتبة على ذلك الشرط الذي يلزمها بحسن السيرة والسلوك كي تنفذ من سجنها وتتحرر، والذي يبدو مستحيلاً مع اقترافها لتلك الأخطاء الفظيعة مودية بحياة أعداد كثيرة من النمل.

لقد تغلبت غريزتي البشرية وما تحكمها من أنانية على ما اكتسبته من فضائل النمل وطبائعه الحميدة، بسببي كادت المستعمرة أن تلقى حتفها، يا لك من كاتبة! بخيالك المجرم الشاذ جررتني إلى التلاعب بعقول رفيقاتي النمل محرضة إياهن على التمرد والخروج عن طبيعتهن المنظمة المنضبطة في اعتصام عن العمل أربك المستعمرة وأفقدها جانباً من حدودها وقوتها، لقد نقلت إليهم أمراضي البشرية اللعينة في إدراك لا يقبل الشك إلى أن الإنسان وحده من يخرب الحياة بأطماعه الفردية.

أخذت مريم نفساً عميقاً مستطردة حديثها عن بغضها لزوجها وروايته التي داوم على كتابتها بإخلاص ومثابرة لإرضاء قداسته

الذهبية التي ملأت محاسنها الصفحات، أي جنون أطلقته في رأس المسكين كي يقضي حياته بحثاً عنها؟! كم تمنيت له العذاب بحبها والموت في اقتفاء أثرها... ذلك اللعين الذي لن يلقى السعادة مع أي امرأة مهما حاول، كلاكما مجنون يفتش عن حب لا تكفله شرائع الحياة وقوانينها، ولا تنبت جذوره في الأرض، ولا يستقيم عوده مع طبائع البشر الفضة فلتنوءا بفقده ما حييتما.

تأكدي أيتها الكاتبة أنني لم أتوانَ أبداً في الانتقام منك آخذة بحقي مهما كلفني الأمر، وبإشارة من أحد قوائمها تحرك سرب النمل ناحية الكاتبة كبقعة سوداء كثيفة هاجماً عليها دفعة واحدة منطلقاً لا يزحزحه صراخها وطلبها النجدة تحت أنظار الجميع وصمتهم، حتى صاح كاظم بمريم أن تسحب فلول سربها عن الكاتبة التي نالت كفايتها من القرص المبرح وآثاره الحمراء الدموية على جسدها تتضاخم بشكل منفر مثيراً حساسية الحضور وسخريتهم اللاذعة إزاء منظرها المهين المزري.

أخذ كاظم ثانية مكانه على المنصة بعد استجابة النملة مريم وسربها إلى طلبه متراجعين على حذر، وفي محاولة منه لإضفاء الهدوء ثانية قال مسترعياً انتباههم: بسم الله الرحمن الرحيم،

الحضور الكريم، هارشاً بكلتا يديه، بعد الاستماع إلى أقوال الشهود واستيفاء المداولات، حكمت المحكمة حضورياً على نادية الابرو بـ............

تمت

ليلة الأحد ٨ تشرين الأول ٢٠٢٢

بلغة ثرة وجمل مكثفة تبحر بنا الروائية القديرة نادية الابرو إلى عوالم غير مأهولة يتداخل فيها الوهم مع الواقع بعجائبية تأخذنا لفضاء ميتافيزيقي تتضامن فيه الشخوص متوحدة لتتحرر من سلبيتها وتؤكد وجودها الحي بسحرية تنسجها بحنكة رابطة خيوط الأحداث حتى نصل لذروة النهاية بنفس مبهور لمعرفة ما تتمخض عنه الخاتمة. فأية محاكمة تتعرض لها نادية الابرو.. ومن يقاضيها؟. أسئلة تجيبنا عليها الابرو في طيات هذا العمل الفريد.

الناشر

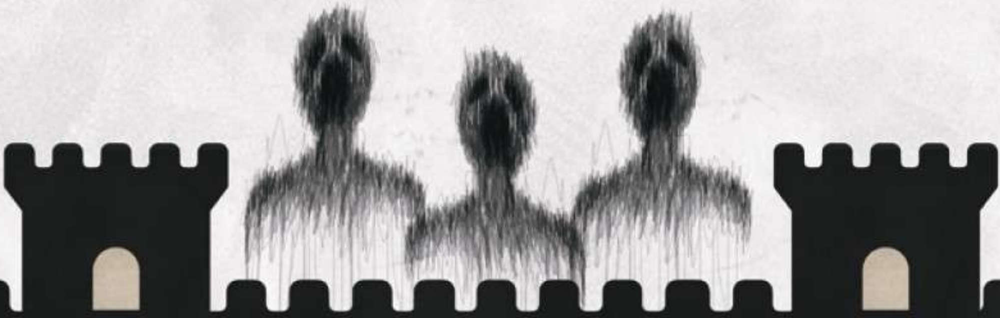

الورشة
دار للطباعة والنشر
بغداد - المتنبي - مجمع العيالي
07714343692
07729247088
alwarsha_books
9 789922 851242
design by
A_il_i

محاكمة نادية الابرو
رواية
نادية الأبرو